جامعة بيروت العربية

حكمة لبنان

تحليل اجتماعي لأمثاله

تأليف

الدكتور حسن الساعاتي

رئيس قسم الفلسفة والاجتماع

وعميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية

١٩٧١

الفهرس

حكمة لبنان

تحليل اجتماعيّ لأمثاله

أولاً

تمهيد

حكمة بالغة، تلك الكلمات البينات، التي ينطق بها نفر من ذوي الحِسِّ المرهف والبصيرة النافذة؛ يستقرئونها عبراً من خبرات الأيام وأحداث الزمان، ثم يصوغونها للناس أمثالاً تسري بينهم وتجري على ألسنتهم، في جمل قصار وعبارات ذات أنغام، مفعمة بشتى المعاني والصور. تتناول حياة البشر، بكل ما فيها من حلو ومر، وتصف النفس الانسانية وما تنطوي عليه من خير وشر؛ بل إنها لتتخطى حدود الانسان إلى البيئة المحيطة به، فتستخلص العبر والقواعد من النبات والحيوان والجماد، وظواهر الكون على مدار العام، لتكون للناس نبراساً يستعينون به على غموض النفس، ويستضيئون به في ظلمة الحياة، حتى ولو كان ذلك في شكل تسلية وملهاة.

ولذلك كانت الأمثال تراثاً شعبياً يمتاز بأصالته، لأنها من صنع الناس أنفسهم. فهي معبرة عن حياتهم، عاكسة لأحوالهم، نابعة من بيئتهم. وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال إن الأمثال هي البضاعة المحلية الخالية من كل غريب مستورد. وهي النتاج البكر الذي يتوارثه الخلف عن السلف على مر الزمان، دون أن تعبث به صروف الأحداث وتقلبات الأيام، ومن غير أن تشوب نسيجه الساذج شوائب التأثر بثقافات أخرى عابرة أو وافدة ومستقرة، ودون أن يغير من طابعها حسن الحضارة وزخرفها المصطنع.

في ضوء هذه المفهومات التي يمكن اتخاذها فروضاً، كان اختيارنا للأمثال الشائعة لكي تكون موضوعاً لبحثنا. وأما قصر البحث على أمثال لبنان وحده، فيرجع إلى اعتبارات يمكن إجمالها في أنه، أولاً وقبل كل شيء، المجتمع الذي تمكننا إقامتنا فيه ومعايشة أهله والاتصال بهم في شتى المناسبات من الاضطلاع بهذا العمل العلمي الذي يتناول جانباً هاماً من تراثهم، الذي يؤثر في تفكيرهم وسلوكهم عن طريق تنشئتهم الاجتماعية منذ بدء إدراكهم وتمييزهم. ومن ناحية ثانية، لأن المجتمع اللبناني قد حظي بجمع مادة وفيرة من الأمثال الشائعة فيه. ومن جهة ثالثة، لأنه يحتفظ بجزء كبير من معدنه الأصيل، على الرغم من كونه ملتقى ثقافات ومعبر تجارات ومركز استرواح ولقاءات.

وربما كان لاتجاهنا الملتزم اجتماعياً في البحوث التي نعني بانجازها،

دخل كبير في اختيار موضوع الأمثال اللبنانية لنتناوله بالدراسة . ذلك لأنه ، في رأينا ، يعكس الحياة الواقعية كما يعيشها الشعب اللبناني ، سواء في السهل أو في الجبل . فالأمثال التي سنتناولها بالتحليل في هذا البحث ، أمثال شائعة في المجتمع اللبناني ، يرددها أهله ذوو الثقافـــة اللبنانية الأصيلة في شتى المناسبات ، للتعبير بصورة مختزلة ومركزة عما يجول في خواطرهم ويعتمل في نفوسهم ، ويتخذون منها معايير لضبط السلوك وتوجيهه ، في ضوء خبرات أسلافهم في الماضي البعيد والقريب . وعلى هـــذا النحو تكون الأمثال ، في رأينا ، فلسفة حياة وحكمة أجيال ، ولذلك تستحق البحث الدقيق والتحليل العميق .

ثانيًا

مجال البحث وأهدافه

لا بد من أن نحدد ، بادئ ذي بدء ، ما نقصده من اصطلاح « اجتماعي » الذي نصف به تحليلنا للأمثال اللبنانية . ولذلك نقرر أن المقصود من هذا الاصطلاح في هذا البحث ، هو المعنى الشاسع الشامل الذي يحمل في طياته شتى ألوان النشاط في المجتمع ، سواء كان ذلك متعلقاً بالأسرة وعلاقات أفرادها بعضهم ببعض ودورها في تنشئة صغارها تنشئة اجتماعية ، أو مرتبطاً بالميدان الاقتصادي وما يشتمل عليه من حرف ومهن وما يجري فيه من أساليب الأخذ والعطاء ، أو متصلاً بالأفكار والمعتقدات والقيم التي تنمط سلوك الناس المتكرر في شكل عادات اجتماعية مصنفة إلى أعراف وتقاليد وسنن ، تعد من أبرز الخصائص القومية التي تميز كل شعب عن الشعوب الأخرى .

ولا شك في أن أهمية هذا البحث تكمن في تحليل الأمثال اللبنانية ذات الدلالة ، وفي الطريقة التي يتم بها هذا التحليل الاجتماعي الشامل الذي يراد به تحقيق أهداف شتى . أولها استنطاق تلك المادة الخام ، وهي الأمثال الكثيرة المتنوعة التي تسنى جمعها على أيدي بعض المهتمين بالتراث الشعبي ، ممن وقفوا بها عند حد جمعها وترجمتها إلى الفرنسية أو الانجليزية ، واكتفوا بشرح المثل وسرد المناسبة التي قيل فيها ، كما يرويها بعض الرواة من أفراد

الشعب . والقصد من ذلـك التحليل الكشف عن المناخ الفكري الذي وضع المثل فيه ، والمرمى الذي يرمي إليه . وثاني أهدافنا من تحليل الأمثال اللبنانية هو التعرف على مراكز اهتمام الشعب اللبناني ، كما تفصح عنها أمثاله ، وأما هدفنا الثالث فهو محاولة استقراء القيم الكامنة في هذه الأمثال ، وينحصر هدفنا الرابـع في توجيه النظر إلى الأمثال وما يمكن أن يفيده منهـا أولئك المعنيون بتربية الأجيال الصغيرة . أمـــا هدفنا الخامس والأخير فمنهجي أساساً ، إذ قصدنا تبيان الكيفية التي يمكن أن تعالج بها مادة اجتماعية كالأمثال معالجة موضوعية تحاول الكشف عن مدى ما بها من انعكاسات لحياة الشعب الاجتماعية .





ثالثاً

مادة البحث

لو لم تكن الأمثال اللبنانية قد جمعت من قبل، لكان لزاماً علينا النزول إلى الميدان وجمعها بأنفسنا، أو بتدبيرنا وتحت اشرافنا بواسطة مساعدين ميدانيين، وفق خطة تتحدد فيها طريقة التقصي الميداني ومجاله ووسائل جمع الأمثال والأدوات التي تستخدم لهذا الغرض، تماماً كما يجري العمل في البحوث الاجتماعية، التي تتطلب استقصاءات ميدانية لجمع الحقائق الاجتماعية التي تكون مادتها.

ولكننا في بحثنا هذا قد وجدنا أمثالاً مجموعة ومنسقة وفق نظام معين، كما سنبين فيما بعد. ولقد كان ذلك مشجعاً لنا في اختيار موضوع الأمثال اللبنانية ليكون محور بحثنا وبؤرة اهتمامنا، وبخاصة أن جمع هذه الأمثال قد جرى وفق خطة رأيناها مرضية من الناحية المنهجية، الأمر الذي جعلنا نثق في المادة المجموعة ونعتمد عليها في تحقيق أهدافنا التي سبق ذكرها.

غير أن البحث ليس سهلاً بالنسبة لأمثال نصفها بأنها لبنانية. ذلك لأن الأمثال اللبنانية البحتة جد محدودة، ولذلك تحتاج إلى استقصاء دقيق يمكن بواسطته الفصل فيما إذا كان المثل لبنانياً صرفاً، أو عربياً على وجه العموم، أي يتردد في أكثر من بلد من البلاد العربية. والشاهد على ذلك أن الأمثال التي جمعت ثم

وسمت بأنها لبنانية ، تشتمل على أمثال تتردد في بـــلاد عربية أخرى غير لبنان . ولئن دل ذلك على شيء ، فانما يدل على أن هـــذه البلاد العربية كلها ، متحدة في تراثها الاجتماعي ، أي في طريقة التفكير وفي أسلوب الحيـــاة . ولكن على الرغم من أنها جميعها مجتمع عربي موحد التفكير والتنفيذ ، فان لكل منها ثقافة فرعية خاصة دقيقة التفاصيل تميزها عن البلاد العربية الأخرى ؛ بحيث يمكن التمييز بين الثقافات الفرعية أو القومية ، وتحديـــد معالم كل منها بمساعدة البحث والدراسة من جهة ، ومعايشة الناس مدة كافية لذلك من جهة أخرى .

١ – مجموعات الأمثال اللبنانية :

ليس في المكتبة العربية مجموعات من الأمثـــال التي وصفت بأنها لبنانية أو التي يمكن أن تؤخذ على أنها لبنانية إلا اربـــع فقط . جمـــع الأولى منها « كارلو لانبيرك » (Carlo Landberg) سنة ١٨٨٣ بعنوان فرنسي ترجمته : « أمثـــال وأقوال من إقليم سورية : قطـــاع صيدا ».[١] وعلى الرغم من أن العنوان الرئيسي يشير إلى سورية ، بوصفها من أقاليم الدولة العثمانية حينذاك ، فان تخصيص قطاع صيدا بالذات يجعلنا نحسب الأمثال والأقوال المجموعة في عداد الأمثال اللبنانية ، على أساس أن هذا القطاع ، منذ استقلال لبنان ، جزء أصيل منه . وعلى أية حال فاننا قد وجدنا ،

---

(١) انظر Anis Frayha, *Modern Lebanese Proverbs*, American University of Beirut, Beirut, 1953, p. VIII.

لاعتبارات منهجية ، الاستعاضة عنها بالمجموعة الثانية التي قام بجمعها المستشرق اللغوي المعروف « ميشال فغالي » (Michel Feghali) الأستاذ بكلية الآداب بجامعة بوردو بفرنسا. وقد نشرت هذه المجموعة سنة ١٩٣٨ بعنوان : « أمثال وأقوال سوري – لبنانية ».[١]

وتحتوي على ٣٠٤٨ مثلاً وقولاً ، مصنفة في سبعة أبواب تدور حول الحياة الشخصية والحميمة ، والحياة الأسرية والمنزلية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة الزراعية والرعوية ، والحياة التجارية والصناعية ، والحياة الدينية والفكرية ، وأخيراً حياة الحيوان وأخلاقه.

ونظراً لوفرة أمثال هذه المجوعة وجودة جمعها وعرضها ، رأينا الاعتماد عليها كمرجع أساسي أول لا غنى عنه.

والمجموعة الثالثة من الأمثال التي تعد لبنانية إلى درجة كبيرة ، هي تلك التي قام بجمعها صبحي المحمصاني تحت عنوان : « مجموعة أمثال من بيروت ».[٢] وهي مجموعة كبيرة مخطوطة وردت الاشارة إليها في مجموعة رابعة من الأمثال ، جمعها أنيس فريحه في مجلدين نشرا سنة ١٩٥٣ بعنوان : « الأمثال اللبنانية الحديثة ».[٣] وعدد أمثال هذه المجموعة ٤٢٤٨ مثلاً ، مبوبة وفق الحروف الهجائية. ويشير إليها جامعها بأنها « أمثال متنية » ،

---

(١) انظر : Michel Feghali, *Proverbes et Dictons Syro-Libanais*, Institut d'Ethnologie, Paris, 1938.

(٢) انظر أنيس فريحه ، المصدر السابق ، قائمة الاختصارات.

(٣) المصدر نفسه.

أي جمعت من « راس المتن »، وهي قرية صغيرة (ضيعة) في قضاء المتن إلى الشرق من مدينة بيروت . ويقرر أيضاً مؤكداً، باعتبار أنها قريته، أن الحياة الاجتماعية فيها تجري على نسق لم يتغير عما كان عليه في أوائل القرن التاسع عشر، وأن أهلها كثيراً ما يعتمدون على الأمثال في حديثهم ليدعموا آراءهم أو ليرفعوا من مستوى تعبيرهم، فيكون الوقع مؤثراً والأثر عميقاً .

وتمتاز هذه المجموعة الرابعة من الأمثال اللبنانية، أو مجموعة أنيس فريحة، ليس فقط بأنها تزيد عن مجموعة فغالي بمائتين وألف مثل، بل أيضاً بأن كل مثل في مجموعته الضخمة مذيل بثبت المرجع أو المراجع الأخرى التي ورد فيها . وقد تحققنا من ذلك فوجدنا أن من بين هذه الأمثال، ١٧٦٤ مثلاً وردت في مجموعة سعيد عبود أشقر بعنوان : « الطرفة الباهجة في الأمثال والحكم العربية الدارجة »،(١) أو في « مجمع الأمثال » لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني،(٢) أو في مجموعة « چيمز رتشرد جووت » بعنوان : « أمثال وعبارات مثلية عربية »،(٣) أو في مجموعة الأب حنانيا المنيّر بعنوان : « أمثال

(١) انظر المصدر نفسه، قائمة الاختصارات .

(٢) الميداني، مجمع الأمثال، المطبعة البهية، القاهرة، ١٣٤٢ هـ . جزءان .

(٣) بالنسبه لهذا المصدر والمصادر الأخرى التالية في هذه الفقرة، انظر أنيس فريحه، المصدر نفسه، قائمة الاختصارات . وسنشير فيما بعد إلى كل مثل من الأمثال المقتبسة من مجموعة أنيس فريحه أو من مجموعة ميشال فغالي بحرف م مع ذكر رقم المثل في المجموعة .

عربية » . وقد يكون بعض هــذه الأمثال التي تقارب الألفين وارداً في كل هذه المجموعات أو في بعضها . كذلك هناك ١٥٥٤ مثلاً أشير إلى أنها وردت في مجموعة يوسف ناصر ، وهي مخطوطة بعنوان : «كتاب البارجة في الأمثال الدارجة ». وهناك ١٥٥٤ مثلاً أخرى وردت في مجموعة فغالي المذكورة آنفاً ، و ٧٣٩ مثلاً جاءت في مجموعة علي الدجاني بعنوان : « مجموعـة أمثال فلسطينية » ، وفي مجموعة جرجس يوسف بعنوان : « أمثال عربية » . كما أن من بينها ٦٣٩ مثلاً ، وردت في مجموعة ج. لويس بوركهارد بعنوان : « أمثال عربية أو آداب المصريين المحدثين وأعرافهم مصورة من أقوالهم الحكمية الجارية في القاهرة » ، أو في مجموعة أحمد تيمور بعنوان : « الأمثال العامية » ، أو في كليهما . ومن بينها أيضاً ٢٥٤ مثلاً ، مذكورة في مجموعة محمد بن شنب بعنوان : « أمثال عربية من الجزائر والمغرب » ، و ١٦٤ مثلاً ، مثبتة في مجموعـة صبحي المحمصاني المشار إليها آنفاً ، و ١٥٠ مثلاً منشورة في مجموعـة يوسف غنيمة بعنوان : « أمثال عراقية » ، و ١٥٠ مثلاً أيضاً وردت في مجموعة « كارلو لانبيرك » التي سبق ذكرها . وهناك فضلاً عن ذلك ١١١ مثلاً ذكرت في مجموعة « هنري هكسلي » بعنوان : « أغـانٍ وأمثال وحكايات سورية » ، أو في مجموعة « الكابتن ر. ف. بيرتن » بعنوان : « الأمثال السورية الشائعة » ، أو في كليهما . وأخيراً هناك ٩٠ مثلاً وردت في مجموعة مخطوطة من الأمثال الأردنية التي قام بجمعها أحد مفتشي التعليم في الأردن . ومن هذه الأمثال التي تربو على الأربعة آلاف ما هو مذكور في أكثر من مجموعة من هذه المجموعات .

٢ – عروبة الأمثال اللبنانية :

على الرغم من أن مجموعة أمثال أنيس فريحة قد وسمت بأنها « أمثال لبنانية » ، وحددت أكثر بأنها « متنية » ، فان الذي يتصفحها بامعان لا يسعه إلا أن يخرج بانطباع عميق وأكيد ، وهو أن لبنان ليس بلداً عربي اللسان فحسب ، بل إنه لعربي التراث والفكر كذلك . فأغلب الأمثال السائدة فيه شائعة أيضاً في بلد أو أكثر من البلاد العربية ، كما يتضح من طريقة ثبت الأمثال في المجموعة المذكورة . ولذلك أكثر من دلالة . فالبلاد العربية كلها كانت وحدة بارزة في الدولة العثمانية التركية اللسان والتراث والتفكير . وحرية الحركة والتنقل في هذه البلاد الشاسعة المترامية الأطراف كانت مكفولة للجميع . واشتراك الشعب العربي في هذه البلاد كلها في لغة عربية واحدة جعل الاتصال بين الناس ميسوراً ، على الرغم من تباين اللهجات المحلية التي كان من السهل التعرف عليها والالمام بها ؛ وبخاصة أن مسافري الماضي كانوا على مستوى طيب من المعرفة الشاملة التي اكتسبوها بكثرة الأسفار ؛ وإن منهم لمن كان على درجة كبيرة من التعليم . ولعل شعور سكان البلاد العربية ، على الرغم من تبعيتهم للدولة العثمانية ، بأنهم يكونون في مجموعهم أمة عربية ذات خصائص قومية عامة ، هو الذي قوى الروابط بينهم وشجع على اختلاطهم وعمل على مزجهم . أما صروف الأيام وأحداث الزمان فقد صهرتهم جميعاً في بوتقة واحدة ، وجعلتهم في الهم صحبة .

٣ – أصالة الأمثال اللبنانية :

لكن الحقائق المذكورة آنفاً لم تمنع ، كما سبق أن قررنا ، من أن

يكون للبنان أمثاله الخاصة به، والتي لم يسبق قولها في أي بلد عربي آخر، وكذلك أمثاله التي تتشابه مع أمثال بلد أو أكثر من البلاد العربية. ذلك لأن للبنان طبيعة جغرافية خاصة، وسمات بئوية (إيكولوجية) معينة، وتركيباً سكانياً فريداً. ولقد أسهم ذلك كله في إكساب لبنان صفات خاصة به مميزة له. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى أن النفس الانسانية، من حيث طبيعتها الأساسية، واحدة في كل زمان ومكان. فهي تنفعل وتتعاطف، وتتنافر وتتآلف، وتكره وتحب، وتغـــدر وتوفي، وتضعف وتقوى، وتجبن وتتشجع، وتداهن وتصارح، وتكذب وتصدق، وتيأس وتأمل، وتهرف بالجهل وتنطق بالحكمة. فلا غرابة إذن في أن نجد مثلاً في بلد ونجد مثلاً مطابقاً له في بلد آخر، دون أن يكون هناك نقل أو اقتباس أدى إلى ذلك التطابق. فكما تنتشر الثقافة من إقليم إلى آخر، كماء النهر الجاري المتشعب الفروع المترامي الأطراف، والمنبع واحـد، فكذلك نجدها تتفجر من ينابيع متفرقة في أنحاء منطقة كبرى، لا صلة لأحد منها بالآخر، والماء المنبعث منها واحد في صفاته وخصائصه.

وللتدليل على ذلك نذكر على سبيل المثال، أن المثل القائل: **«صاحب الحق سلطان»**،[1] موجود في لبنان ومصر وبلاد عربية أخرى. وهو مثل يكاد ينطق به كل حكيم دون إفادة أو تعليم، لأنه بسيط المعنى قوي الحجة واضح الصورة. وكذلك المثل القائل:

---

(١) أنيس فريحـه، المصدر السابق، م ٢١١٧.

«**صاحب الحاجة أدعر**»،[١] موجود أيضاً في لبنان، وهناك شبيهه في مصر وبلاد عربية أخرى. وقد سبق نطق العرب بما يشبه ذلك من قبل.[٢] وهناك حقيقة تعتمد على صفات عضوية بشرية ينطق بها مثل ذكر بصيغ مختلفة في لبنان وبلاد عربية أخرى، وهو: «**صابيعك بايدك مش كلهم سوا**»،[٣] و«**صابيعك بايدك كلهم سوا؟**»،[٤] و«**صوابعك مش زي بعضها**».[٥] وهناك حقيقة أخرى تبين حذق المتخصص، الذي بلغ درجة الأستاذية في صفته، ينطق بها المثل القائل: «**ضربة المعلم بألف ولو كانت من خلف**».[٦] وهذا المثل معروف في لبنان وبلاد عربية أخرى. ولا تخلو كل بلد من معلم على رأس الصنعة، ضربته واحدة لا تخطئ الهدف، حتى ولو كانت من وراء ظهره. ذلك لأنه يعتمد على بصيرته المنماة بالارادة والمصقولة بالخبرة، وليس على بصره، تلك الوسيلة القاصرة للادراك.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك أمثال لا شك في نقاء لبنانيتها، وهي كثيرة. فالمثل القائل: «**خمنت حالا بجدلون ضيعة!**»،[٧] مثل لبناني بحت. فمجدلون حلة صغيرة فقيرة

---

(١) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ٢٠٧.
(٢) الميداني، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨١: «صاحب الحاجة أعمى».
(٣) و(٤) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٢١١١.
(٥) هكذا يقال في مصر.
(٦) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٢١٩٥.
(٧) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ٣٠٤.

مجاورة لبلدة بعلبك في محافظة البقاع ، وكان يسكنها في يوم من الأيام رجـــال أشداء شجعان أذكياء ، لكنهم غلبوا على أمرهم واقتحمت منازلهم وسلبت أمتعتهم وحيوانهم . كذلك المثل القائل : « **الأول بالحازمية ولا التاني بروميّة** » ،[1] مثل لبناني ومحلي أيضاً . فالحازمية في أطراف مدينة بيروت معروفة . وهناك أيضاً مثل لبناني أصيل يدل على ما كانت تشتهر به مدينة بعلبك في يوم من الأيام ، ثم أصبحت من بعد صنعة دمشق وتفنن بيروت وتخصص طرابلس وصيدا لا تساوي في ذلك شيئاً مذكوراً . هذا المثل هو : « **ما في حلاوة الا ببعلبك !** » .[2] وربما كان المثل الحكيم التالي من أنقى الأمثال في لبنانيته ، وهو : « **ابرمي عكا ورواد ولا تاخدي رجال عنده أولاد** » .[3] والمقصود من هذا المثل هو أن تتأنى الراغبة في الزواج، وأن تقطع البلاد بحثاً من أقصى الشمال إلى أدنى الجنوب، علها تجد رجلاً بدون أولاد ، حتى ولو كان قد سبق له الزواج . فذلك خير ألف مرة من أن تتزوج ممن سبق له الزواج ، وأصبحت له ذرية تشغله وتلهيه وتصرفه عنها ، فضلاً عما تسببه لها من مضايقات لا نهاية لها . وهناك مثل لبناني أصيل ، يقال فيمن يتحاشى إبداء وجهة نظره ، إمـا ضعفاً أو خجلاً ، وإما حباً في المداراة أو إمعاناً في الكتمان ، وهو : « **متـل أرامل نيحا بالغمز** » .[4]

---

(١) المصدر نفسه ، م ٣٠١ .

(٢) المصدر نفسه ، م ١١١٣ .

(٣) أنيس فريحـه ، المصدر السابق م ٢٢ .

(٤) ميشال فغـالي ، المصدر السابق م ٢٥٠ .

فنيحا قرية لبنانية مر بها أحـــد المسافرين فلاحظ أن الأرامل اللاتي صادفهن في طريقه ، يبدين بالاشارة مـــا يدل على رغبتهن الملحة في الزواج ، ولكنهن لا يصرحن بذلك .

وليست الأمثال التي ذكرناها آنفاً إلا عينات من الأمثال اللبنانية الأصيلة . وهي كثيرة العـــدد ، يدل على أصالتها المناخ الفكري والبيئة الجغرافية والطابع المحلي للخلفية الاجتماعية لكل مثل منها ، كما سنذكر فيما بعد . وفي ضوء ذلك يمكن أن نقول إن مادة بحثنا ، وهي الأمثال اللبنانية التي تكون الجزء الأكبر من مجموعتي كل من ميشال فغالي وأنيس فريحه ، مادة كافيـــة لتحقيق الأغراض التي سبق ذكرها .

٤ ـ الوظائف الاجتماعية للأمثال :

قد يثار تساؤل يبدو أساسياً لدى من يستعرض الحكم المختلفة التي سكبت فيها أسرار تجارب الحياة ، ليس فقط في الأمثال اللبنانية ، بل أيضاً في أمثال البلاد الأخرى ، شرقيها وغربيها ، وقاصيها ودانيها . هذا التساؤل هو : هل أدت هـــذه الأمثال الحكمية والملاحظات الاجتماعية العميقة إلى سعادة البشر ؟ أو هل يمكن أن تؤدي إلى حياة أفضل ؟ والجواب عن ذلك يحتاج إلى شيء من الروية والتفكير .

إن الذي يتدبر أحوال المجتمعات المتحضرة ، وما بها من علل اجتماعية ومشكلات سياسية ، وما يسود بين أفرادها من مظاهر

الشقاق وصور الصراع ، ليتعجب من شئونها المختلطة وأحوالها القلقة ، على الرغم مما أرسل الله إلى عباده من أنبياء يرشدونهم ، ورسل يهدونهم بما أنزل الله عليهم من كتب حوت الحكمة الخالصة ومفاتيح السعادة الكبرى ، دنيا وأخرى . وهذه الكتب نفسها تفيض بشتى الأمثال لتبصير الناس بما فيه أمنهم وراحتهم وخيرهم . ومع ذلك فهم في ضلالتهم يعمهون . وما كان للأمثال أيضاً أن تصلح ما أفسد الدهر . ولكن على الرغم من ذلك ، يمكن أن يلتقط من الأمثال المعنيون بتربية النشئ ما يستطيعون به تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق والارشاد إلى الطريق المستقيم . فالأمثال تراث يحتوي على ما لو أمكن إحكام تصويره ، شعراً أو نثراً ، تمثيلاً أو قصصاً ، لكان من خير الأدوات للضبط الاجتماعي الذي لا بد منه لتنشئة الأفراد منذ طفولتهم تنشئة اجتماعية سليمة . وبناء على ذلك ، إذا كان الجواب عن التساؤل الأول غامضاً وليس جازماً بالنفي أو الإيجاب ، فان الاجابة عن التساؤل الثاني ، لا شك ، بالايجاب . وهكذا يكون الخلف قد أفاد مما ترك السلف ، وطوره في ضوء الحياة الحديثة . ومن يدري ؟ فربما يستطيع أن يضيف إليه جديداً . وبذلك يستمر التراث ويتخلص من شوائبه ، فالتراث الاجتماعي هو القاعدة الوطيدة لحياتنا . وعلينا أن نبقى عليه وننقيه ونطوره ، ونبني فوقه صرحاً اجتماعياً شامخاً ، فالمثل يقول : « **إلما عندو عتيق ما عندو جديد** » . [1]

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٢٨٤ .

ولكن هناك ملاحظة تحتاج إلى إعمـــال فكر، وهي أننا نصادف بعض الأفراد القلائل، الذين يسيرون في حياتهم الخاصة بقولهم دائماً: «**على رأي المثل، وعلى رأي من قال، والمثل ما قال شي كذب**»،[1] ثم يذكرون مثلاً أو أكثر يدعم وجهة نظرهم، ويوضح بعض المسائل الغامضة. فهـل هؤلاء الأفراد، الذين يحفظون من الأمثال كل شاردة وواردة، ويستشهدون بها في كل مناسبة، أحسن حظاً في الحياة من غيرهم وأشد حرصاً وأقل وقوعاً في الخطأ؟ الحق أني أميل إلى القول بأنهم، ولا شك، أكثر حيطة من غيرهم، وأن الوقت الذي يستنفدونه في استرجاع المثل وتطبيقه على الموقف الذي يواجهونه، يعطيهم الفرصة لتدبر أمورهم في شيء من الروية.

يضاف الى ذلـــك أن الأمثال، من وجهة النظر النفعية، وَصْفات اجتماعية، كالوصفات الطبية، وصفت للمحافظة على سلامة الناس وأمنهم وخيرهم، كأفراد وكأعضاء في المجموعات والجماعات الاجتماعية التي يعيشون فيها ويتعاملون مـع بقية أفرادها، أي أنها وصفات للمحافظة على كيان المجموعات والجماعات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع الكبير. وقد يكفي للتدليل على ذلك المثل القائل: «**لا تدخل بيت الظنان، ولا تاكل خبز المنان**».[2] وعلى هذا الأساس، بدا لنا أن يكون التحليل الاجتماعي للأمثال

---

(١) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٣٥٩٩.
(٢) المصدر نفسه، م ٣٠٩٥.

اللبنانية وفق خطة تتحدد فيها ملامح الصورة الاجتماعية ، وتتجمع فيها الأمثال التي تصلح بها حياة الناس ، في المجتمع الانساني بعامة ، وفي المجتمع اللبناني على وجه الخصوص . وبذلك تصبح لدينا مجموعة من الأمثال اللبنانية المختارة ، التي يستطيع الفرد السير على هديها والتعامل في ضوئها ، فتنير له السبيل في الحياة ، وتجلب له الراحة والأمان ، لأنها حكمة مجتمع بأسره ، حكمة لبنان .

تلك ملاحظات متعلقة بالأمثال بوجه عام ، وبالأمثال اللبنانية على وجه الخصوص ، رأينا أن نبديها لارتباطها بوظائف الأمثال الاجتماعية . وللأمثال ، فضلاً عن ذلك ، وظيفة جمالية وأخرى ترفيهية . فأما الوظيفة الجمالية فيدل عليها المثل القائل : « أمثال العوام ملح الكلام » .[١] وأما الوظيفة الترفيهية فتظهر في أن الصورة التي تتكون في الذهن عند سماع بعض الأمثال كثيراً ما تطرب لها النفس . ومن قبيل ذلك هذا المثل : « **سبعة بل سبعة شل ، سبعة بحامض سبعة بخل ، سبعة بشي سبعة بلا شي ، يقبر إمو ما داق شي** »[٢] ، وهذا المثل الدقيق المعنى : « **واحد ضيع مصرُّو ، قلّو يا ربي لا توقعو بيد معلم بياخدو ، وقعوا بيد غشيم بيردو** » .[٣] ويقول الميداني في مجمع أمثاله عن هاتين الوظيفتين : « ... وأمثال تتحلى بفرائدها صدور المحافل والمحاضر ، وتتسلى

---

(١) المصدر نفسه ، م ٦١٨ .
(٢) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٠٤ .
(٣) المصدر نفسه ، م ١٧٠٠ .

بفوائدها قلوب البادي والحاضر ، وتقيد أوابدها في بطون الدفاتر والصحائف ، وتطير نواهضها في رؤوس الشواهق وظهور التنائف » .[1]

٥ ـ ذاتية لبنان في أمثالها :

لقد رأينا قبل المضي في تنفيذ خطة بحثنا لتحليل الأمثال اللبنانية ، أن نتعرض لموضوع أساسي وجوهري وهو ذاتية لبنان . ونقصد بذلك شعور الشعب اللبناني بذاته وبكيان وطنه ، ذلك الشعور الذي يحدد هويته ويميزه عن غيره من الشعوب الأخرى ، كما يظهر في أمثاله . وتتضح الذاتية بطريقتين ، الأولى تميز الذات عن الذوات الأخرى عن طريق استقلال الذات وتحديد خصائصها ، والثانية تميز الذوات الأخرى منفصلة عن الذات نفسها . وتمام هاتين الخاصيتين في الذات هو الذي يعرف بالتشخصن ، أي بتكون الشخصية . وتكتمل الذات وتصبح الشخصية تامة التكوين باعتراف الذوات الأخرى بالذات نفسها وتقديرها . ولعل خير مثل يدل على ذلك ، المثل القائل : **« نيال من إله مرقد عنزة بلبنان »** .[2]

أما اللبنانيون أنفسهم فيقولون عن غيرهم : **« المصري جوابه بتمه والحلبي بكمه والشامي عند إمه »** .[3] ويقولون كذلك :

---

(١) الميداني ، المصدر السابق ، ص ٢ .
(٢) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٤٠٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ، م ٣٧٠٤ .

«**يا داخل مصر متلك ألوف**».[1] وبمناسبة ذكر مصر، هناك عشرة أمثال لبنانية تتعلق بها، وتدل على أن اللبنانيين ينظرون إلى مصر على أنه قطر قريب الشقة من بلدهم فيقولون: «**مصر موش بعيدة علّي بزورها**».[2] ويتحاكون بجمال شتائها بقولهم: «**شتي مصر وربيع الشام**».[3] وللبنانيين أمثال سورية الموضوع، كقولهم: «**شراكة حلبية**»،[4] أو «**صحبة حلبية**»،[5] أي أن كل واحد ينفق على نفسه، وقولهم: «**لا بدمر عيدنا، ولا بالشام لحقنا العيد**»،[6] وكذلك قولهم: «**جوزيك يا مليحة راح عالشام وحدو**».[7] ويقصدون بذلك أنه شجاع لا يهاب مخاطر الطريق، وذلك في زمان لم يكن فيه السفر مأموناً.

ولقد بلغ من اعتداد اللبنانيين بذاتهم أنهم يسخرون من غيرهم، مستخدمين في ذلك ظواهر الطبيعة. ويعبرون عن ذلك بمثلين متشابهين، فيقولون: «**يا هم أنفة من هدير البحر!**»،[8] و«**شو ع بال**

---

(١) ميشال فغالي، المصدر السابق م ١٢٧٦.
(٢) المصدر نفسه، م ١٢٦٠.
(٣) المصدر نفسه، م ٢٣٦٨.
(٤) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٢٠٠٥.
(٥) المصدر نفسه، م ٢١٤٨.
(٦) المصدر نفسه، م ٣٠٦٩.
(٧) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ١٣٧٤.
(٨) المصدر نفسه، م ٤٩٠.

جونية من هدير البحر؟».[1] وهم لا يقفون عند هذا الحد، ولكنهم يسخرون أيضاً من أنفسهم، وهذا غاية الاعتداد بالذات، فيقولون: **«لولا بسكنتا والشوير كانت الدني بألف خير»**.[2] ويقولون كذلك: **«لولا بجدليا وبجدل معوش كانت الدني خالية من الوحوش»**.[3]

ذلك مدخل إلى التحليل الاجتماعي للأمثال اللبنانية، رأينا لزاماً علينا أن نبدأ به، حتى يتبين أن المجتمع اللبناني الذي نتناول أمثاله بالبحث والدراسة مجتمع مستقل بذاته واع بشخصيته المتبلورة. وهي شخصية ذات خصائص أسهم في تكوينها، كما سبق أن ذكرنا، عوامل شتى تشمل موقعه الجغرافي، وطبيعة أرضه المنقسمة إلى جبال ووديان وسهول، وتعرضه لظواهر طبيعية فريدة، وأحداث تاريخية معينة، وتفاعلات مجتمعية خاصة مع المجتمعات الأخرى المجاورة والقريبة والبعيدة.

---

(١) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٢٠٧٢.
(٢) المصدر نفسه، م ٣٢٢٧.
(٣) المصدر نفسه، م ٣٢٣٥.

رابعاً

التحليل الاجتماعي للأمثال اللبنانية

إن خير طريقة لتحليل الأمثال اللبنانية تنحصر في تحديد مخطط لحياة الناس وسلوكهم في المناسبات المختلفة الرئيسية الهامة منذ ولادة الانسان ، ثم التمشي معه في مراحل نموه الأساسية ، وانتقاء الأمثال ذات الدلالة ، التي تصور أوضح تصوير خلاصة الخبرة البشرية التي أمكن انتزاعها من الواقع المعاش ، لكي تكون لهم ولمن يأتي من بعدهم هادياً ومرشداً .

ولتحقيق ذلك بطريقة سلسة ، سنتتبع في تحليلنا الاجتماعي للأمثال اللبنانية دورة الحياة . فنتناول أولاً ما يتعلق بانجاب الأطفال ، وتربيتهم حتى يكبروا ، وتعليمهم ، واشتغالهم ، وزواجهم ، وعلاقاتهم ، وأخلاقهم ، وصحتهم ، وقيمهم وسياستهم . وبذلك نكون قد تناولنا شتى النظم الاجتماعية ، كنظام الأسرة والنظام التربوي ، والنظام الاقتصادي ، والنظام الأخلاقي ، والنظام السياسي . هذا بالاضافة إلى ظواهر نفسية اجتماعية ذات آثار بالغة الأهمية في حياة المجموعة والجماعة على السواء ، كتصنيف الناس ومحاولة فهم شخصياتهم ، بغية جعل التعامل سهلاً ميسراً .

١ – إنجاب الأطفال :

لا أحد ينكر أن الذرية زينة في الحياة الدنيا ، وبها يتم بنيان

الأسرة وتكتمل شبكة العلاقات الاجتماعية فيها. ويقول المثل: «**البيت إلّي ما فيه ولاد زغار معتم**».[1] ولئن كانت الأطفال تكبد أهلها نفقات كبيرة، فانهم حينما يكبرون ويشتغلون، وهم لا يزالون مقيمين معهم، يصبحون مصدر دخل للأسرة، كما يقول المثل: «**الأولاد أولهم فقر وآخرهم غنى**».[2] ولكن لا أحد يشك في أن كثرة الذرية مع قلة ذات اليد محنة عظيمة، كما أن العقم أمر مقيت. ويصور اللبنانيون ذلك تصويراً مقتضباً جميلاً بقولهم: «**بلاهم بلا وبلاهم بلا**».[3] ويسخرون ممن لا تقف في الانجاب عند حد معين، فيقولون: «**حبلى ومرضعة، وقدامها اربعة، وطالعه للجبل تجيب دوا للحبل**».[4]

ويكاد يكون هناك إجماع عالمي على أن خير ذرية ما تكونت من اثنين، أحدهما ذكر والآخر أنثى. ويقول المثل: «**بنت وصبي طعمة النبي**».[5] وعلى الرغم من أن كثيراً من الناس، وبخاصة الشرقيين، يرغبون رغبة أكيدة في أن يكون أول ذريتهم ذكراً، فان اللبنانيين قد استخلصوا من تجاربهم أن الأنثى هي خير ما يبكر به الزوجان، ولذلك قالوا: «**إلّي بيسعدها زمانها بتجيب**

---

(١) المصدر نفسه، م ١٠٥٠.

(٢) المصدر نفسه، م ٧٥٠.

(٣) المصدر نفسه، م ٩٨٥.

(٤) المصدر نفسه، م ١٣٥٢.

(٥) المصدر نفسه، م ١٠١٢.

بناتها قبل صبيانها ».[1] ذلك لأن الفتاة سرعان ما تصبح بديلاً عن الأم ، فتساعدها في تربية الأطفال الجدد ، كما تعاونها في تحمل مسئولية تدبير البيت . ومن الناحية النفسية ، في رأينا ، أن وجود بديلة عن الأم في الأسرة يخفف كثيراً من شدة وطأة عقـــدة أوديپ عند الأطفال الذكور ، وبتالي يسهم في سلامة صحتهم النفسية .

٢ – تربية الصغار :

لا يشك أحد في أن تربية الفرد منذ ميلاده إلى أن يشب عن الطوق ويصبح في أيدي الأيام تُرَبِّيه ، وفي بوتقة التجارب تصهره وتنمي الخبرة فيه ، من أشق الأمور وأخطر المسئوليات . ويعبر اللبنانيون عن ذلــك بمثلين عظيمي الدلالة ، أحدهما : « **تراباية الصبيان (الولاد) متل تقرقش الصوان** »[2] ، والثاني : « **حملوني حملين ولا تحملوني ابن سنتين** ».[3] ذلك لأن للصغار حاجات جسمية ونفسية واجتماعية ، لا بد من توافرها لكي يكون نموهم متكاملاً على أساس أن الفرد كائن عضوي – نفسي – اجتماعي ، وأنه يجب التعامل معه في أبعاد شخصيته المثلثة الجوانب . وربما كانت تربية الصغير أشد صعوبة بعـــد بلوغه الثانية من عمره . ذلك لأنه منذ بداية السنة الثالثة ، يأخـــذ عوده في الاشتداد

---

(١) المصدر نفسه ، م ٤٧٥ .
(٢) المصدر نفسه ، م ١١٦٠ .
(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٨٨٠ .

تدريجياً وتكثر حركته ، وتتسع دائرة معاملاته ، وتشتد رغباته ، ويصبح في حاجة إلى عملية كف شديدة ، لا يقبلها إلا بمرارة ، لأنه لا يعي منطقها أو المغزى الذي ترمي إليه .

والذي يلاحظ بدقة وتمعن تربية الأطفال منذ ميلادهم ، يجدها غير هينة . فكثيراً ما حير الأطفال الرضع والديهم ببكائهم الذي يكاد لا ينقطع ، وبخاصة أثناء الليل ، وأمهاتهم في حاجة ماسة إلى النوم الهادئ . وربما كان البكاء غير ناجم عن سبب عضوي كالجوع أو الضيق من الثياب المشدودة أو المبتلة أو التبرم من شدة الدفء أو البرودة أو لمعان الضوء أو الضجيج . ويصور حيرة الوالدين ونكدهم في هذه الحالة المثل القائل : « **ابن ليلته بكيد عيلته** » .[١]

وهناك مثل ذو معنى نفسي شديد الخطر، لما فيه من أثر بالغ السوء في نفسية الأطفال الذين يولد من بعدهم أطفال آخرون ، فيستحوذون على عناية والديهم الذين يولونهم كامل رعايتهم ، منصرفين في ذلك انصرافاً يكاد يكون تاماً عن الأطفال القدامى ، الذين يحسون إحساساً عميقاً وأليماً بأن الأخوة الجدد قد احتلوا أماكنهم في نفوس والديهم ، واستحوذوا على حبهم . ولعل هذا المثل اللبناني ، الخطير الدلالة من الناحية النفسية ، ينبه إلى هذه الخطورة بقوله : « **إجا بدالك راح دلالك** » .[٢] وتأكيداً لذلك ،

---

(١) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٤٩ .
(٢) المصدر نفسه ، م ٧١ .

حذر السلف الخلف من التفرقة في المعاملة بين الأبناء وعدم التزام العدل بينهم، فقالوا: «**إلّي بخصص ولد عن ولد بتمرة بخصصه الله بجمرة**».[1] وليس معنى ذلك أن المعاملة العادلة بين الأبناء تجعلهم لا يشعرون بما يوجد بينهم من فوارق، أولها وأهمها ذلك الفارق الكبير، وهو فارق السن، الذي يشعر الصغير بأنه دون من هو أكبر منه. ولذلك نجد الطفل الأصغر دائماً كأنما يجري في سباق مع أخيه الأكبر منه، فضلاً عن منافسته ومحاولة التغلب عليه. وينجم عن ذلك بطبيعة الحال مشاحنات طويلة بينهما، كثيراً ما تقلق بال الوالدين وتحيرهم. ولذلك قال السلف المجرب: «**متل الروسية، زقار ونقار**».[2]

ومن الحقائق الاجتماعية التي لاحظها السلف، تلك الحقيقة التي أصبح العلم يعترف بها، وهي التي يعبر عنها المثل القائل: «**جوزك على ما عودتيه، وابنك على ما ربيتيه**».[3] ذلك لأن الطفل يولد غير عارف من أمر مجتمعه شيئاً، وأسرته هي التي، بتربيتها إياه، تكسبه اللغة والقيم والعادات والتقاليد والدين والأخلاق. ولقد سبق قول الرسول الكريم، محمد ﷺ، في هذا المعنى: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**».[4]

---

(١) المصدر نفسه، م ٣٧٨.
(٢) المصدر نفسه، م ٣٥٢٩.
(٣) المصدر نفسه، م ١٣٠١.
(٤) نقلاً عن مقدمة العلامة ابن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٢٣.

وهناك إجماع على أن التعلم في الصغر سهل كالنقش على الحجر. وتربية الأطفال في صغرهم هي القاعدة الوطيدة التي يقام عليها صرح شخصيتهم وعماد مسلكهم في الكبر. والمثل يقول: «**الّي ما بيربي صغير ما بيربي كبير**»،[1] لأن الصغر هو مرحلة التربية والتعويد. والشاعر العربي يقول:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

وعلى هذا الأساس يصدق المثل القائل: «**العادة خامس طبيعة**».[2] وإذا ما صارت العادة خصلة في الإنسان، كاد يكون من المستحيل تغييرها؛ وبخاصة إذا ما كانت متأصلة فيه منذ طفولته، وشب عليها فشاب عليها. والمثل يقول: «**العادة (الخصلة) في البدن ما بغيرها غير الكفن**»،[3] كما يقول أيضاً: «**تغيير العوايد صعب**».[4]

وقد اختلفوا في معاملة الصغار وكيف تكون من حيث اللين والشدة. ويقول المثل: «**إلّي ما بقسي قلبه ما بربي ولده**»،[5] كما يقول أيضاً: «**ابنك وهو زغير ربيه، ومتى كبر واخيه**».[6] ويتفق هذا المثل في فكرته مع الأثر العربي الحكيم الذي يقول:

---

(١) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٥٥٩.

(٢) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ٥٥١.

(٣) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٢٣١٠.

(٤) المصدر نفسه، م ١١٨٧.

(٥) المصدر نفسه، م ٥٤٧.

(٦) المصدر نفسه، م ٥٤.

« لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم ألـق حبله على غاربه » .

٣ - أثر البيئة والوراثة :

على الرغم من جهود العلماء ومحاولاتهم الكثيرة لحسم الخلاف ، الذي قام فترة طويلة حول التميز بين أثر البيئة وأثر الوراثة في سلوك الانسان ، فان الغموض لا يزال يكتنف هذا الموضوع من جوانب شتى . ولكن هناك أفكاراً واضحة تتعلق بتأثير كل منهما في السلوك تأثيراً لا يمكن الجدال فيه. وقد بلورتها التجربة البشرية في أمثال شتى ذات معان غاية في البساطة والوضوح ، وبخاصة من حيث الصور التي ترسمها لأداء الفكرة . فهناك مثل يقول : **« زرعنا الحنظل بأرض العنبر ، سقينا عدادينو سكر ، عند فصلو رجع لاصلو »** .[1] ويدل ذلك على أن البيئة مهما تهيأت فيها أسباب التغيير ، فانها عاجزة تماماً عن تعديل الخصائص الأصلية الثابتة المستقرة . فمرارة الحنظل لا يمكن تغييرها ، أو حتى تخفيف حدتها مهما كانت التغييرات التي يمكن إجراؤها في البيئة التي يزرع فيها . والمثل يقول : **« الكلب كلب ولو بين السباع ربي »**،[2] و **« الحمار حمار ولو حمل خزنة السلطان »**،[3]

---

(١) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ١٩٦٩

(٢) المصدر نفسه ، م ٢٨٣١ .

(٣) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ١٤٧١ .

و« التي ما هو أبيض خلقه ، ما ببيضه من الصابون مية فلقه » .[1]

ومما تجدر ملاحظته أن الأمثال التي تبرز أثر الوراثة أو البيئة تدور حول نبات أو حيوان ذي خصائص معينة مميزة . وذلك واضح في المثلين السالفين ، وكذلك في المثلين الطريفين التاليين : « **جابوا الذيب ت يعلموه القراية ، قالوا : قول ألف ، قال : عنزة . قالوا : قول باء ، قال : جدي** » ،[2] و « **زنر القط بالسجق ونادي عليه : يا صاحب الأمانات** » .[3] ويتضح كذلك في المثل القائل: « **إمه بصله وبيه توم وبتسأل: منين ريحة التوم؟** » .[4] ويستنتج المنطق الانساني القائم على بادي الرأي المستخلص من خبرات الحياة ، فيؤكد كما سبق أن ذكرنا أن « **الخصلة في البدن ما بغيرها غير الكفن** » .[5]

هذا فيما يرتبط بالوراثة ، أما فيما يتعلق بالبيئة فالأمثال كثيرة أيضاً وواضحة الدلالة . ومن قبيل ذلك المثل القائل : « **لا تربط الجحش حد البغل ، إن ما تعلم لبيطه بيتعلم نهيقه** » .[6] ويشير هـذا المثل إشارة مباشرة إلى أثر صحبة السوء ، وإلى أن كل

---

(١) المصدر نفسه ، م ٦٠٠ .
(٢) المصدر نفسه ، م ١٢٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ، م ١٨٥٥ .
(٤) المصدر نفسه ، م ٦٢٩ .
(٥) انظر ما قبل ، ص ٣٧.
(٦) أنيس فريحـه ، المصدر السابق ، م ٣١٠٢ .

قرين بالمقارن يقتدي . ولذلـك كان أثر الوالدين في أبنائهم بعيد المدى أكيد المفعول . وفساد البيئة الأسرية يمهد ، بل يؤدي في حالات كثيرة إلى اعتلال نفوس الصغار وانحراف سلوكهم ، كما يقرر المثل القائل : « **الأب عاشق ، والام غيرانه ، والبنت في البيت حيرانه** » .[1] وممـا لا شك فيه أن الأطفال ينقلون عن والديهم عاداتهم ويتخلقون بأخلاقهم ويتأثرون بمهنهم . ويشير إلى ذلك المثل القائل : « **إمي ما كانت نورية حتى بصر بالبخت** » .[2]

٤ – التعليم :

لم ينكر السلف قيمة التعليم ، ولا أثره في جعل الفرد قوياً قادراً على مغالبة الشدائد . وقـد قالوا في أمثالهم : « **الدارس غاب الفارس** » .[3] وليس العلم سلاحاً في يد الانسان فحسب ، بل إنـه أيضاً وسيلة إلى الرقي والرفعة . ولذلك قالوا : « **مجد التاجر في كيسو ومجد العالم في كراريسو** » .[4] وجدير بالملاحظة تفريقهم بين المهنتين ، التجارة والعلم ، وربطهم كل مهنة بركيزتها الأساسية . فكيس التاجر يحوي ماله ، وكراسات العالم تحمل علمه .

ولكن الأقدمين رأوا ببصيرتهم النافذة ، أن الذي يعتمد في

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٥ .
(٢) المصدر نفسه ، م ٦٣٠ .
(٣) المصدر نفسه ، م ١٥٩٥ .
(٤) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٤٤١ .

كل شيء على ما هو مدون في الكتب ، كثيراً ما يخطىء الهدف ويحيد عن جادة الصواب . فالحياة الإنسانية تعتمد على إعمال الفكر وربط الأفكار بعضها ببعض والوصول إلى استنتاجات صائبة مفيدة ، أكثر مما تعتمد على حفظ ما في الكتب من معلومات وتطبيقها تطبيقاً عاماً ، دون ملاحظة الفوارق بين الأحوال والظروف والمواقف . ولذلك قالوا : « **إلّي علمه في كتابه غلطه أكتر من صوابه** » .[1] ذلك لأن الخبرة والتجارب من أغنى المصادر بالمعرفة الصافية ، التي يصل إليها الانسان في أناة وعلى مهل ويتدبرها في روية وإمعان . والمثل يقول تأكيداً لذلك : « **الحكمة تلتينها مدارة (تجريب)** » .[2]

والاعتراف بالاختصاص وأهله ليس ظاهرة جديدة ، وإنما هو أمر شائع منذ القدم . فالسلف ينصح الخلف بقوله : « **شور من أهل الشور بيسوى قبيلة** » .[3] وهذه هي القاعدة التي تسير عليها التقاليد الجامعية العريقة . فالأساتذة ، وهم أهل الشور ، هم مصدر المعرفة والخبرة ، ولذلك يوكل إليهم أمر الإشراف على طلبة الدراسات العليا ، حتى يتتلمذوا عليهم ، ويتشربوا منهم أسرار المنهج العلمي في التفكير والبحث وتحقيق الفروض .

---

(١) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٥١١ .

(٢) المصدر نفسه ، م ١٤٤٦ .

(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ١١٤ .

٥ – العمـــل :

هناك أمثال كثيرة تدل على تقدير السلف للعمل. ذلك لأنه يحفظ كرامـــة الانسان ويغنيه عن الناس وذل الحاجة إليهم. ويقولون في أمثالهم : « **اشتغل الحـــد والعيد ولا تحتاج خيك السعيد** ».[١] والشغل صعب وفيه مشقة ، ولكنه للبدن صحة. والانسان بدونه يضعف جسمه ويتبلد إحساسه. وصدق المثـل الذي يقول : « **الشغل بجوهر البدن** ».[٢]

وكما قال الحكماء من قديم الزمان : « **من جد وجد** » ، قال العامة بصفاء تفكيرهم : « **اشق تلق** » ،[٣] أي أن لكد الانسان ونصبه نتيجة مفيدة ، ولا شيء يعدل الراحة بعد عناء الجهاد. ولا يستطيع الانسان أن يعيش بالأمل دون تعب وعمل. فالمثل يقول : « **كل شي بالأمل خلا الرزق بالعمل** ».[٤] وليس بخاف ما في هذا المثل من حض على العمل والسعي وراء الرزق وعدم التواكل. وهذه الصفات من شيم اللبنانيين ، الذين يسعون وراء رزقهم حتى ولو كان بأمريكا اللاتينية ، التي جعلوا فيها وطناً ثانياً لهم. والمثل يقول : « **المعاش حيله ومن احتال عاش** ».[٥] ولذلك يشجعون شبابهم على السفر والاغتراب ، فيقولون : « **يا دلّو إلما تغرب في صباه** ».[٦]

---

(١) المصدر نفسه ، م ٣٩٦.
(٢) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٢٠٣٢.
(٣) المصدر نفسه ، م ٢٠٨.
(٤) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٣٦٤.
(٥) المصدر نفسه ، م ٥٩.
(٦) المصدر نفسه ، م ١٢٧٧.

٦ ـ الحرف :

الحرف التي كانت سائدة لدى السلف في لبنان هي الزراعة والتجارة والصناعة التقليدية . ولذلك حظيت منهم ، وبخاصة الزراعة والتجارة ، بأمثال كثيرة ومتنوعة . ويقولون فيما يتعلق بالزراعة : « **افلح أرضك واستر عرضك** ».(١) فليس في ذلك مهانة ، ما دام الانسان يعمل ويكسب بعرق جبينه من عمل شريف . ويقولون أيضاً : « **إذا خلقت فقير عليك بقراريط الخيل وزرع الشعير** ».(٢) فالخيل ظهورها عز وبطونها كنز ، ولذلك كانت تربيتها مجزية كتربية غيرها من الماشية . ولعل خير نصيحة تقال في البيئة الزراعية ، تلك التي يحتويها المثل القائل : « **إن جار عليك الزمان جود ع الأرض** » ،(٣) أي تعهدها جيداً واحرثها واقتلع منها الحشائش الضارة واسهر عليها تجد لذلك أطيب الثمار . فالأرض إن أحسن فلحها كانت خيراً من تربية الماشية التي تحتاج إلى الغذاء ، والمعرضة للأمراض والفناء . ولذلك قالوا : « **بيع الكرش واشتري الشرش** ».(٤) وذلك بشرط تعهد الأرض بعناية وحرثها جيداً والتبكير في زراعتها ، كما يقول المثل : « **افلح وَتَنِّ وازرع بدري** ».(٥) ولما كانت الزراعة في لبنان

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٨٩٣ .

(٢) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ١٣٥ .

(٣) المصدر نفسه ، م ٦٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ، م ١١٠٢ .

(٥) المصدر نفسه ، م ٢٧١ .

تعتمد على الينابيع التي تتفجر بالصدفة في أماكن متفرقة ، قال اللبنانيون عن خبرة : **« الأرض بتفرق ع شبر »** .[١]

ولما كانت الزراعة أيضاً حرفة مضنية لأنها تقوم على فلح الأرض والارتباط بها ، فان السلف فضلوا عليها التجارة فقالوا : **« عيشة الفلاح مرة وعيشة السوقي حرة »** .[٢] ولما كانت التجارة أكسب حرفة ، قال أهل الخبرة : **« اقعد بالسوق واتمرغ بترابه »** .[٣] ولكن التجارة تحتاج مراناً وخبرة وسعة حيلة وطول بال . ومن أمثالهم في ذلك : **« احسب حساب الخسارة قبل حساب المكسب »**،[٤] و **« إحي مالك بمالك »** ،[٥] و **« خب العسل بجراره ت تجي أسعاره »** .[٦] ولكن التجارة إذا كسدت ، وحلت الأزمة الاقتصادية بالبلاد ، فعندئذٍ يصدق المثل القائل : **« الدكاكين مصاطب الذل »** .[٧]

أما الصناعة التي يتحدث عنها السلف اللبناني ، فهي الصناعة التقليدية في شكلها القديم المحدود النطاق . وقد قدروها حق

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٧٠ .
(٢) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ١٨٩١ .
(٣) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٢٨٨ .
(٤) المصدر نفسه ، م ١٠٠ .
(٥) المصدر نفسه ، م ١١٠ .
(٦) المصدر نفسه ، م ١٥٠٣ .
(٧) المصدر نفسه ، م ١٦٢٥ .

قدرها ، لما تحتاج إليه من مهارة وتدريب طويل يبدأ في الصغر بما يعرف بالتلمذة الصناعية على أيدي معلمي الصنعة ، ثم يتدرج مع نمو الفرد . فعندما يصبح شاباً ، يكون قد صار صاحب صنعة يشتغل عند أحد المعلمين . فاذا ما كبرت سنه وعظم فنه وكسب ثقة المعلمين وتقديرهم واستطاع الاستقلال في معمل خاص به ، صار معلماً .

ويدل على تقدير اللبنانين للصناعة المثل القائل : « **إلـّي بايده صنعة مالك قلعة** ».[1] ويشير المثل القائل : « **بتقوم القيامة والمعماري على الحيط** »،[2] إلى أن المعمار حرفة نافقة ، لأنها مرتبطة بالعمران ، القائم بدوره على كثرة السكان واتساع المعاملات بينهم وازدهار الحياة الاجتماعية بمعناها الشامل لكل الهيئات والنظم على اختلاف أنواعها . والثابت أن الناس محتاجون إلى ضروريات أساسية ثلاث : الغذاء والكساء والبناء .

٧ – النشاط والجو :

لقد عرف السلف من خبرتهم الطويلة ، التي اكتسبوها على مر السنين ، أن الجو الجغرافي ذو تأثير كبير في نشاط البشر على مدار السنة . وذلك لما له من علاقة وثيقة بالزراعة ، وبالتالي التجارة ثم الصناعة . فهذه النباتات تزرع شتاءً ، وتلك صيفاً ، وثالثة غيرها

---

(١) المصدر نفسه ، م ٣٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، م ٨٠٩ .

تزرع في الربيع أو الخريف. فدرجة الحرارة والبرودة من جهة، وكمية المياه التي يمكن توافرها عاملان أساسيان في الزراعة إلى جانب طبيعة الأرض. هذا من جهة الزراعة، أما من ناحية التجارة والصناعة، فهما متوقفتان في حالات كثيرة على المحصولات الزراعية.

فليس غريباً إذن أن يترك السلف إلى الخلف خبرتهم الطويلة الفنية مختزلة في أمثال تربط ما بين النشاط الانساني والجو. ولعل الأمثال التي من هذا النوع هي أعظم الأمثال أصالة في لبنانيتها، لأنها تتعلق بظواهر جوية تصدق على لبنان وحده أكثر من صدقها على البلاد المتاخمة له أو القريبة منه. فلكل بلد أمثاله «الجوية» التي تتعلق به وحده، وتصف مختلف ألوان النشاط الاجتماعي فيه من حيث أرتباطها بأحواله الجوية.

ففي محافظة الشمال يقولون: **«اللادقاني صادقاني»**،[1] أي أن الغيوم التي تأتي من منطقة اللاذقية، أي من الشمال الغربي، تحمل أمطاراً غزيرة، تهطل إما بالليل أو في صبيحة اليوم التالي. ومعنى ذلك أن هناك نذراً لا تخطىء، فاذا ما وقعت تبعتها حتماً أحداث معينة. ويقول اللبنانيون عن خبرة طويلة: **«برد التشارين توقاه، وبرد الربيع تلقاه»**.[2] ويقولون كذلك:

(١) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ٢٣٨٧.
(٢) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٨٦٠.

« **إذا نصب قوس القزح قبلة وشمال فك فدانك واشتال** » .[1] ذلك لأن المطر في هذه الحالة سوف يسقط لا محالة . ويقولون أيضاً : « **إتلجت إفرجت** » ،[2] أي أنه بعد أن يغطي الثلج أديم الأرض ، وتصبح الدنيا ناصعة البياض ، يصير الجو صافياً والهواء نقياً . ومن قبيل ذلك ، أيضاً قولهم : « **درّجت سماها ، قرب مياها** » ،[3] أي أن الغيوم إذا ما تراكمت في السماء ، بعضها فوق بعض ، فان ذلك يدل على أن هطول الأمطار أصبح وشيك الوقوع .

ومن الطريف أن نلمح إلى أن القدامَى قد لاحظوا بدقة التقلبات الجوية وشذوذ الطقس في كثير من الأحيان عن المعتاد . وتوصلوا بذكائهم الفطري إلى استنباط قاعدة تحكم ذلك الشذوذ ، فتخيلوا أن مقايضة تجري بين شهري شباط (فبراير) وآذار (مارس) ، فيقرض الأول الثاني أربعة أيام شديدة البرد غزيرة المطر ، ويقرض الثاني الأول بدلاً منها الثلاثة الأيام الأخيرة منه ، وهي أيام عاصفة ذات برد يتسرب إلى عظام الشيوخ فيعجل بفنائهم . ويسمون هذه الأيام « **المستقرضات** » ، ويشرحون قاعدتها بقولهم : « **ثلاثة مني واربعة من ابن عمي آدار بيهلكوا العنزات**

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ، م ٧٠ .

(٣) المصدر نفسه ، م ١٦٠٩ .

والاختياره والاختيار » .[1] ولذلك يحذرون من ضررها فيقولون: « **بالمستقرضات عند جارك لا تبات** » ،[2] مخافة ألا يكون عنده الدفء الكافي ، وخشية ألا يكون المرء على سجيته ، فلا يستطيع تدفئة نفسه كما يريد ، وفي حرية لا تتسنى له إلا في بيته .

وأمثال اللبنانيين المتعلقة بالشهور ذات دلالة عظيمة ونفع كبير ؛ وبخاصة عند أولئك الذين لا يتتبعون النشرات الجوية التي تذاع أو تنشر في الصحف ، والتي كثيراً ما يتشكك فيها المجربون ، ويرون أن الخبرة المستقاة من تجارب الأيام على مر الزمان هي خير مرشد للانسان . فيقولون عن شهر كانون الثاني (يناير) : « **بكانون التاني الأصم ، اقعد في بيتك واصطم** » .[3] ويحذرون كما ذكرت من شهري شباط وآذار ، فيقولون : « **كل ساعة براي متل غيمة شباط** » ،[4] أي أنه شديد التقلب . ويقولون أيضاً : « **شباط ما عليه رباط** » ،[5] ثم يقرنون بـه آذار فيقولون : « **راح شباط الغدار وجا آدار الهدار** » .[6] ذلك لأن آذار ،

---

(١) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٣٣٧ .

(٢) المكان نفسه . ويقول أنيس فريحه إنها تعرف في اللغة العربية الفصحى بأيام العجوز ، المصدر السابق ، ص ٢ .

(٣) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٩٦٧ .

(٤) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٣٨٤ .

(٥) المصدر نفسه ، م ٢٣٦٤ .

(٦) المصدر نفسه ، م ٢٣٦٠ .

كما ذكرنا، شهر له من اسمه الروماني نصيب كبير، فمارس إله الحرب والبلاء والكرب. ولقـد صدق السلف إذ قالوا عنه: **«آذار الهدار، فيه الزلازل والأمطار، وفيه سبع تلجات الكبار من عدا الزغار»**، [١] أي ثلج ضخم فضلاً عن الثلج الذي دون ذلك بكثير. وبانتهاء آذار ينتهي فصل الشتاء، إذ يؤكدون: **«لا تقول خلصت الشتوية حتى تخلص المستقرضات المنكية»**. [٢]

وبطلوع شمس شهر نيسان (ابريل) يبدأ الربيع، فيقولون: **«بنيسان إطف نارك، وافتـح شبابيك دارك، واسبح في الشمس لزنارك»**. [٣] ذلك لأن الشتاء في نيسان يصبح ناعماً رقيقاً، وينتعش فيه الناس والحيوان، وتصير الدنيا ندية. ولذلك يقولون: **«شتوة بنيسان بتحيي الانسان»**. [٤] أما شهر أيار (مايو) فهو بدء النشاط والعمل في الأرض، فالمثـل يقول: **«في عشرة أيار احمل المنجل واندار»**. [٥] فاذا ما جاء شهر حزيران (يونيه) بدأ الحر تدريجياً، ولذلك قالوا: **«حزيران شهر البسط والكيف، أوله ربيع وآخره صيف»**. [٦] ولكنه

---

(١) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٨.

(٢) المصدر نفسه، م ٣١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، م ١٠١٨.

(٤) المصدر نفسه، م ١٩٧٩.

(٥) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ٢٠١٤.

(٦) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ١٣٩١.

كثيراً ما يكون مفاجئ الحر ؛ وبخاصة أنه يأتي بعد شهر أيار الدافئ في نعومة ، فيحس الناس بحرارته ، ويقولون : « **بحزيران بتشعل النيران** » . [1]

ولكن الشهرين الشديدي الحرارة حقاً ، واللذين يكونان صلب الصيف ، هما تموز (يوليه) وآب (أغسطس) . ولذلك يقولون عن أولهما : « **بتموز بتغلي المَوي بالكوز** » . [2] وينعتون الثاني بقولهم : « **آب اللهاب** » . [3] ولكن هذه الحرارة هي التي تنضج الثمار وتسرع بالخير العميم . ويقول المثل : « **بعشرين آب أدخل الكرم ولا تستهاب** » ، [4] ولو أن تحديد اليوم من الشهر يتوقف على مدى ارتفاع الأرض أو انخفاضها . ويخصص مثل آخر نوع الثمرة التي تجنى ، فيقول : « **في آب اقطف العنقود ولا تستهاب** » . [5] ويأتي بعد ذلك شهر أيلول (سبتمبر) فيخفف من شدة الحرارة ، ويهبط بها تدريجياً ليمهد لحلول الخريف . ولذلك قالوا عنه : « **أيلول طرفو بالشتي مبلول** » . [6] ولكنه شهر عميم الخير ، ففيه تدخر المؤونة للأشهر الجرداء في الشتاء . وهذا يفسر معنى

---

(١) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٣٤٢ .
(٢) المصدر نفسه ، م ٢٣٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ، م ٢٣٣٢ .
(٤) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٩٤٢ .
(٥) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢١٢٠ .
(٦) المصدر نفسه ، م ٢٣٣٦ .

قولهم : « **بأيلول تموّن لعيالك واخلي الهم عن بالك** » .[1]

ويعرف الخريف في لبنان بشهرين يشتركان في اسم واحد هما تشرين أول (أكتوبر) وتشرين ثانٍ (نوفمبر) ، ولهما خطورتهما على صحة الناس . وذلك لتذبذب الطقس فيهما من حال إلى حال ، وبسبب التعلق بأذيال الصيف وما يسود فيه من التخفف من الثياب . ويقول المثل : « **بين تشرين وتشرين صيف تاني** » .[2] ولكن سرعان ما يحذر مثل آخر من التهاون في تدفئة الجسم التدفئة الواجبة ، فيقول : « **برد التشارين أحد من السكين** » .[3] أما شهر كانون الأول (ديسمبر) فمعروف بشدة ظلام لياليه ، إذ يقول المثل : « **أظلم الليالي كانون** » ،[4] كما يقال أيضاً : « **رياح كانون شيبت النسور بالجو** » .[5] ولا غرابة في ذلك فكانون الأول يمهد لبدء الشتاء الحقيقي . وعلى الرغم من ذلك ، فهذا الشهر وأخوه الثاني الذي يليه ثابتان في طقسهما إذا ما قيسا بتقلب الجو في شهر شباط . والمثل يقول : « **امش على غيم كانون ، ولا تمش على نقا شباط** » ،[6] ذلك الشهر الذي ليس له رباط .

---

(١) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٧٩٥ .

(٢) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٣٥١ .

(٣) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٨٥٨ .

(٤) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٣٧٦ .

(٥) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ١٨٢١ .

(٦) المصدر نفسه ، م ٦٢٥ .

ومهما يكن من شيء فان قواعد الطقس قد حيرت الناس ، لأن تقلباته على مر الزمان مشهورة ، وموضع دهشة بل استنكار أحياناً . ولم يفت السلف ذلك كما ذكرنا ، فقالوا عن شباط ، « **شباط لو شبط ولو لبط ريحة الصيف فيه** » ،[1] كما قالوا عن نيسان : « **لا تتعجب يا إنسان ، في نيسان جرفنا التلج عن الكدسان** » .[2] واستخلصوا قاعدة عامة بخصوص المطر تريحهم من كثرة شذوذه ، فقالوا : « **عرفت من جد وأب إن كل الشهور بتشتي إلا آب** » .[3]

٨ - الزواج :

للبنانيين في الزواج أمثال سكبوا فيها خلاصة تجاربهم ، سواء في ذلك ما تعلق بالخطبة أو بالمعاشرة بين الزوجين . فهم يعترفون بعد طول خبرة بأن: «**الجازة نصيب، وتنصيب، وقطع نصيب**».[4] وهذا ما أجمعت عليه أبحاث مكاتب الارشاد الزواجي الحديثة ، التي تحاول جاهدة إرساء الزواج على أسس علمية متينة . فتقف العاطفة لهم بالمرصاد لتضرب بمحاولاتهم عرض الحائط . ويتم الزواج في الأعم الأغلب وفقاً للمثل السالف ذكره . ولا يقف السلف في تشكيكهم في التخطيط للزواج عند هذا الحد ، بل

---

(١) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٣٦٥ .

(٢) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٣٠٨٨.

(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٣٧٧ .

(٤) المصدر نفسه ، م ١٣٧٦ .

يذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيقولون : « **عروسك في بجلاها ، ما بتعرف مين بيتولاها** » .[1]

ولكن السلف على الرغم من نظرته القدرية للزواج ، قد ترك بعض أمثال لا بد من أن يتدبر ما تحويه من حكمة كل مقدم عليه . ولعل أول مسألة تجب إثارتها بهذا الخصوص ، ما يتوهمه الناس في الزواج من راحة شاملة وحل كامل لمشكلات الراغبين فيه . وهذا وهم لا بد من التنبيه إلى مكمن الخطأ بل الخطر فيه . ذلك لأن الزواج ، فضلاً عما يشتمل عليه من شتى المسؤوليات الاجتماعية والاقتصادية والمشكلات المرتبطة بها ، عملية تكيف معقدة وحساسة في الوقت ذاته ، لما تتضمنه من محاولات للتوافق في أبعاده النفسية والجسمية ، يصادف الزوجان فيها النجاح تارة والاخفاق تارة أخرى . ويحذر من هذا الوهم الخادع ، المثل القائل : « **تجوزنات نستريح حملنا المنجل والشطيح** » .[2]

ويؤكد السلف أهمية المنبت عند اختيار العروس ، فيقولون : « **اسأل عن الام قبل ما تلم** » .[3] ذلك لأن الأم هي المربية الأولى للطفل ، والمثل الذي تحتذيه الابنة ، والمشرفة الدائمة عليها المراقبة لسلوكها المهذبة لأخلاقها . ويقولون أيضاً : « **خذ أصيلة**

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٣٩٢ .

(٢) أنيس فريحه ، المصدر السابق، م ١١٥٣ . والشطيح رق من الجلد يترك عليه العجين ليتخمر .

(٣) المصدر نفسه ، م ١٧٩ .

ولو كانت ع الحصيرة ». [1] ذلك لأنها ، كما يقول المثل : « بتموت حرة ، وبتوفر الصرة ، وبتطرد العدو لبرا » . [2]

وهناك مسألة اهتم بها السلف ، ولم يفتهم أن يتركوا للخلف رأيهم فيها . وهو رأي يؤكده علم من أحدث العلوم ، هو علم الثقافة . فهم يقولون : « **بنت البلاد بتحمل عالخير والشر** » ، [3] أي أنها لا تتبرم من المعيشة مع زوجها سواء في مجتمعهما أو في مجتمع آخر ، مهما كانت الصعاب التي تواجههما . ذلك لأنهما ربيبا ثقافة واحدة . فهما يشتركان في قيم واحدة توجه إلى سلوك واحد ، عادة كان أو عرفاً أو تقليداً . أما إذا ما تباينت كل من ثقافتي الزوج والزوجة ، فانهما يعيشان في خلافات مستمرة ، لأن قيمهما مختلفة . والقيم هي مجموعة المعتنقات والمعتقدات الشائعة في المجتمع ، والتي تضبط سلوك أفراده وطرائق تفكيرهم وأساليب تعاملهم بعضهم مع بعض . ولا يقف ضرر هذه الخلافات على الزوجين فحسب ، بل إنه لينعكس على نفوس الأطفال ، الذين يصبحون حيارى بين ثقافة الأب وثقافة الأم ، وبخاصة إذا كانت ثقافة الأم هي القوية الغالبة . ذلك لأن الأب ، وهو عنوان الأسرة ورئيسها ، إما أن يتضاءل أمام الأم ويكون ضعيفاً وتابعاً ، وهذا وضع متناقض مع دوره ودورها ، وإما أن يعاند ويكابر ويتحدى ،

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٥٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ، م ٨١٠ .
(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ١٣٦٩ .

بينما ثقافته تخذله بضعفها ودونيتها أمام ثقافة زوجته ، وأولادهما ينحازون إلى الثقافة الأقوى والأرقى ، بحكم كونهم جيلاً جديداً فتياً ، ولذلك يقدرون قيمها . وهكذا يسود التناقض حياة الأسرة وتدب فيها عوامل التفكك وعدم الانسجام ، ويصبح التكيف فيها عملية تكاد تكون مستحيلة . وكم من أسر انفصمت عراها بسبب التباين الشديد بين ثقافة الزوج وثقافة الزوجة .

ولا شك في أن الزواج السعيد هو الذي تدوم فيه المحبة بين الزوجين . وكما قال المثل : **« إلّي جوزها معهـــا بتدير القمر باصبعها »** .[(١)] ذلك لأنهما يكونان وحدة واحدة متعاونة متحابة متماسكة . أمـا إذا دب النفور بين الزوجين ؛ وبخاصة إذا كان الزوج ، وهو الأقوى قانونياً واجتماعياً ، لا يعجبه العجب ، ولا يرضى عن زوجته ، ويتلمس لها الأخطاء ، فان الحياة بينهما تصبح نكدة . ومثل الزوجة التي يكون هذا حالها كمثل الزوجة التي قالت لزوجها ، وصار قولها مثلاً : **« حامض وحلو طبخت لك ، جوا وبرا فرشت لك ، لكن درب التبانة ما حسبت لك »** .[(٢)] وفي هذه الحالة ، ربما يكون الانفصال خير وسيلة لحل المشكلة ؛ إذ كما يقول المثل : **« كل كره واشرب كره ولا تعاشر كره »** .[(٣)] فالأكل والشرب أمران قصير أجلهما ومحدود تكرارهما كل يوم ،

---

(١) أنيس فريحـه ، المصدر السابق ، م ٤٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ، م ١٣٢٧ . أي ما حسبت أن الفراش لا يقع تحت درب التبانة الذي تكرهه .

(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ١٨٣٨ .

أما المعاشرة فطويلة الأمد ومستمرة ، وتشتمل على ألوان مختلفة من العلاقات . ولذلك لا يمكن أن تقوم على الكراهية المطلقة . ولم يفت السلف تحذير الزوجة من أثر الغيرة ، التي تؤدي إلى توتر العلاقات بينها وبين زوجها ، وربما إلى انفصام العروة المعقودة بينهما ، مهما كانت وثيقة . فقد قالوا بحق : « **غيرة المرة مفتاح طلاقها** » . [١] وهذا هو المثل ذاته الذي نطق به الحكيم العربي ، إذ قال : « **غيرة المرأة مفتاح طلاقها** » . [٢]

٩ – تساكن الحماة والكنة :

نقصد بتساكن الحماة والكنة اشتراكهما في معيشة واحدة تحت سقف واحد . والذي يدعونا إلى أن نطرق هذا الموضوع ، على الرغم من اتجاه الجيل الجديد إلى الاستقلال بعد الزواج عن الوالدين ، هو استمرار هذه الظاهرة حتى يومنا هذا ، بل أيضاً العودة إلى التوسع فيها ، بسبب حاجة الأمهات العصريات المتعلمات المشتغلات إلى من يرعى صغار أطفالهن أثناء خروجهن إلى العمل . ولذلك رأينا أن نحلل هذه الظاهرة التي كثرت حولها الأقاويل ، وضربت بصددها الأمثال ، من حيث الكره المتبادل بين الحماة والكنة . ويقول المثل : « **الحما ما بتحب الكنة ولو إنها من حور الجنة ، والكنة ما بتحب الحما ولو إنها نازلة من السما !** » . [٣]

---

(١) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٢٥٥٤ .
(٢) الميداني ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢ .
(٣) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ١٤٦٧ .

وهناك أسباب تقليدية لهذا التنافر الظاهر بين الحماة والكنة . فالحماة تشعر بأن كنتها قد شاركتها في حب ابنها ، إن لم تكن قد استأثرت به كله . والحماة تحس بغيرة شديدة من الكنة التي تصغرها سناً بكثير ، والتي قد تكون ، فضلاً عن ذلك ، أجمل من ابنـــة الحماة بشكل لافت ، الأمر الذي يجعل الكنة هدفاً لكره شديد من الحماة وابنتها أو بناتها على السواء . ويظهر ذلك بوضوح في المثل الذي يقول : « **الحما حمي ، وبنت الحما عقربة مسمة ، وعمنا الاختيار ما بيدخل الجنة !** ».[1] ذلك لأن زوج الحماة كثيراً ما ينحاز إلى زوجته ، اقتناعاً منه بوجهة نظرها ، أو مداراة منه وتلافياً لسخطها . وفي كلتا الحالتين يصبح عـدم نزاهته بلاء يقـع على رأس الكنة المسكينة ، التي تعيش في هم مقيم تنتظر فيه تلـك الساعة ، التي تخلصها من كيد الحماة ، أس المحنة ومصدر البلاء .

والحق أن تساكن جيلين تحت سقف واحد أمر جد عسير . ذلك لأن لكل جيل أفكاره وقيمه وأسلوب تعامله في الحياة . ولهذا الاختلاف البين ، بين ثقافة كل من الجيلين ، وقعه الأليم الذي يحز في نفس كل من الحماة من ناحية ، وكنتها من ناحية أخرى . فاذا ما أضيف إلى ذلك ميل الحماة إلى استغلال الكنة وعـدم الشفقة عليها ، بما تكلفها بـــه من أعمال ، إذا كانت لا تخرج

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٤٦٦ .

للعمل ، كان الأمر فوق الطاقة . وقد قال المثل في ذلك : **« إن حبتني حماتي ع التنور ، وإن بغضتني حماتي ع التنور »** .[1]

ومن الصعب إقناع الحماة بأن تحسن معاملة الكنة ، سواء على أساس أن لابنة الحماة نفسها كنة أيضاً بدورها ، أو على أساس أن الحماة ذاتها كانت في يوم من الأيام كنة ، وكانت لها أحاسيسها وآراؤها . ولكن هيهات ، فالمثل يقول : **« يا حما ما كنت كنة ، قالتلا كنت كنة ونسيت »** .[2] والواقع أنه من العسير كسب رضاء الحماة عن الكنة ، لأنها ، بوصفها الكبرى التي عفى عليها الزمن أو كاد ، تشعر شعوراً عميقاً بأنها مهددة ، إن لم يكن قد اعتدى على كبريائها وطمأنينتها ، بزواج ابنها من شابة في مقتبل العمر قوية . ويشهد المثل على صعوبة إرضاء الحماة بقوله : **« برموا حمص وحما تا لقيوا كنة للحما »** .[3]

ولكن لكل قاعدة شواذ . فهناك في حالات نادرة الحماة التي تعامل كنتها كابنتها ، وتحفظ أسرارها ، وتقف معها تدافع عنها أمام زوجها الذي تحبه لأنه ابنها ، وتسر إليها بما يجعلها تستحوذ على حبه . وفي هذه الحالة تكون الكنة لحماتها ممتنة ، تحبها كحبها لأمها ، وتتمنى لها الصحة وطول البقاء . ولكن ذلك من

---

(١) المصدر نفسه ، م ٦٤٢ .

(٢) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٩٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ، م ٩٣٤ .

الشاذ النادر ، إذ يقول المثل : « **بالألف كنة واحدة بتحب حماتها ، وبالألفين حما واحدة بتعز كنتها** » . [١] والسبب في ذلك كما يقول المثل العربي القديم :

« **إن الحماة أولعت بالكنة وأولعت كنتها بالظنة** » [٢]

والمخرج من هـــذه المشكلة ، إذا أريد به أن يكون سهلاً ميسراً ، يتحقق بالفصل بين الحماة والكنة ، واستقلال كل منهما بمعيشتها بعيداً عن الأخرى . فتكون النتيجة قلة التعامل والاحتكاك ، الأمر الذي يؤدي الى الطمأنينة وراحــة البال . فاذا لم يتيسر ذلك ، وكان لا بد من المساكنة تحت سقف واحد ، فانه لا بد من لفت نظر الحماة إلى حكمة المثل الذي يقول : « **حبوا كنانيكن تا يعيشوا بنينكن** » . [٣]

١٠ — أخلاق البشر :

ما حير البشر غير أخلاق البشر . والأخلاق نتـــاج طباع وتطبعات . وكم تختلف الطباع وتتباين التطبعات ، حتى في البيئة الواحدة . ذلك لأنها غير ثابتــة ولا مستقرة ، ولكنها في تغير دائم . ودراسة البشر ليست من اليسر في شيء ، لأن الباحث نفسه إنسان معرض للتغير في كل آن . ويزداد الأمر صعوبــة وتعقيداً

(١) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٧٩٠ .
(٢) الميداني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١ .
(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٩٣٨ .

ما دام متغير يبحث متغيراً في إطار متغير . وصدق المثل العربي الذي يقول : « **الناس إخوان وشتى في الشيم** » .[1] حقاً إنهم إخوان في الآدمية ، ولكنهم متباينون أصلاً ومنبتاً وطباعاً وبيئة . وفضلاً عن ذلـــك كله ، فمنهم الصريح ومنهم الملتوي ، ومنهم المرن ومنهم المتصلب ، ومنهم المتسامح ومنهم العنيد ، ومنهم الطيب ومنهم الخبيث ، ومنهم الخير ومنهم الشرير ، ومنهم النافع ومنهم الضار ، ومنهم من يضحك بأسنانه والسم يقطر من لسانه ، ومنهم المطاوع ومنهم المكابر ، ولله في خلقه شؤون .

ولم يفت السلف أن يعلقوا على أخلاق البشر ، ويروا رأيهم فيها ، ويضعوا أحكاماً عامة بخصوصها . وأول هذه الأحكام ذلك الحكم الذي يحتوي عليه المثل القائل : « **الناس جناس واكترن انجاس** » .[2] ويستحق هذا المثل وقفة قصيرة نتدبر فيها أبعاده ومراميه . حقاً إن الناس أصناف مصنفـــة كما ذكرنا ، ولكن الظاهرة اللافتة للنظر هي أن أغلبهم من الأشرار . فما أسباب ذلك يا ترى ؟ لعل الفروق الفردية الأساسية هي أس الداء ومركز البـــلاء . فالناس لم يخلقوا متشابهين متساوين في الجنس واللون والاستعداد والموهبة والبيئة والظروف . فأفسح ذلك المجال لظهور الشعور بالدونية بين أغلبهم ، وأثار حفيظـة بعضهم على بعض ، ولوى شخصيات الكثيرين منهم ، وجعلهم يتصرفون تصرفات لا

---

(١) الميداني ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

(٢) ميشال فغـالي ، المصدر السابق ، م ٤٢ .

يستطيع الكشف عن أسباب انحرافها إلا القدير على سبر أغوار النفس. ومن لمحات السلف الطريفة في ذلك قولهم: **« القصير بيتسلطن سبعين مرة بالنهار »**.[1] وكذلك قولهم: **« كل طويل هبيل، وكل قصير في الأرض فتنة »**.[2]

وربما كان السبب الرئيسي في التواء النفس البشرية وفسادها، تلك الحقيقة الانسانية التي تتلخص بايجاز في قوله تعالى: **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث »**.[3] وهكذا صار الشر أقرب الخلال إليهم، والمكر والخديعة ديدن أكثرهم. ولذلك قال السلف: **« ابن آدم أسود راس »**،[4] أي أنه ماكر شرير، على الفساد قدير. ولما كانت شرور الانسان موجهة إلى أخيه الانسان، فقد صدق السلف إذ قالوا: **« بلا الناس من الناس »**.[5]

وقد يكون السبب سوء المربي الناجم عن فساد المربين، وفي مقدمتهم الآباء والأمهات. والمربون هم المثل الأعلى للشباب، الذين يقتدون بهم وينسجون على منوالهم. ومن الأمثال التي تحمل

---

(١) المصدر نفسه، م ٦٠٢.

(٢) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٢٩٢٩.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٤.

(٤) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ١٤٥٢.

(٥) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٩٨٠.

المعنى الذي نرمي إليه ، ذلك المثل القائل : « **الأب عاشق والام غيرانه ، والبنت في البيت حيرانه** » .[1]

إننا إذا تدبرنا هذه الأسباب ، وأضفنا إليها ظروف كل فرد ، التي يوجد فيها وتحيط به من كل جانب ، لا نستغرب إذا وجدنا الشرير ومنكر الجميل ، الذي حـــذر منه المثل الذي يقول : « **كل شيء إذا ربيته بينفعك ، إلا ابن آدم إذا ربيته بيقلعك** » .[2] وبذلك يكون ابن آدم في هذه الخصلة بالذات ، أدنى مرتبة من الحيوان ، الذي اشتهرت فصائل منه بشدة وفائها وعرفانها للجميل .

ولقد نمط السلف بعض الناس بناء على مـــا ظهر لهم من أخلاقهم . فهناك القادر المتحدي ذو السطوة ، الذي قالوا عنه : « **خالع الباب ومزنر بالعتبة** » .[3] وهناك المسيطر ذو الجبروت ، الذي وصفوه بقولهم : « **بيذبح بظفره** » .[4] ومن الناس الحاذق ذو الحيلة ، الذي ذكروا عنه أنه : « **يحلب النملة** »،[5] و« **بيطلع اللقمة من قلب الصخر** » .[6] ومنهم المكابر الذي لا يعجبـــه

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٥ .
(٢) المصدر نفسه ، م ٢٩٠٦ .
(٣) ميشال فغـالي ، المصدر السابق ، م ٧٥٢ .
(٤) أنيس فريحـه ، المصدر السابق ، م ١٠٧٦ .
(٥) المصدر نفسه ، م ١٠٧١ .
(٦) ميشال فغـالي ، المصدر نفسه ، م ٣٥٦ .

العجب ، ويقولون عنه : « **حامل سلمه بالعرض** » ، [1] فهو يسفه كل الآراء . وهناك الشخص الملتوي ، الذي قيل فيه : « **بيمشي بالورب متل السلطعون** » ، [2] فهو غير صريح بالمرة . وهناك أيضاً المنافق الخطير ، الذي قالوا عنه : « **ضحكته بسنانه وسمومه بلسانه** » . [3] وربما ينطبق على هذا الصنف من الناس المثل الذي يقول : « **من برا رخام ومن جوا زخام** » ، [4] تماماً كما يقول الشاعر العربي :

جمال الوجه مع قبح النفوس   كقنديل على قبر المجوسي

ومن الناس من يجري وراء الجاه ، حتى ولو كان تافهاً ، وحتى ولو كلفه ذلك ماء وجهه ، أو جعله يتنازل عن قيم غالية ، أو كان في ذلك ضرره بأي حال من الأحوال . وهذا الصنف من الناس هو المعني بالمثل القائل : « **بيحب الامارة ولو عالحجارة والعلو ولو عالخازوق** » . [5] ويغفل هذا الصنف من الناس عن الحكمة العربية التي تقول : « **ذل العزل يضحك من تيه الولاية** » . [6] وعلى الرغم من أن الولاية التي يجرون وراءها ويريدون اعتلاء كرسيها

---

(١) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ١٣٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ، م ١١٢١ .
(٣) المصدر نفسه ، م ٢١٨٤ .
(٤) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٥٢ .
(٥) المصدر نفسه ، م ٣٠٣ .
(٦) الميداني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

فارغة ، فانها في نظرهم علو واقتدار . وهكذا يظهر ضعف النفس البشرية وإسفافها ، بل دونيتها في الأعم الأغلب . وهذا أمر قد حظي من السلف الأوائل بالملاحظة والتدبر والتعليق .

١١ - ارشاد البشر :

لما كانت النفس البشرية غير خالية من المثالب ، كما أوضحنا ، فانـــه لم يفت السلف الصالح أن يترك للخلف ميراثاً يرشدهم ويهديهم ، وينبههم إلى التروي في سلوكهم ، وأخذ الحيطة في أقوالهم وأفعالهم ، حتى ينعموا بالطمأنينة ، وتكتب لهم النجاة من شرور البشر . فقد قالوا : « **حلاوة الشب في الدنيا تلاتة : المروة والفتوة وكف السخا** » . [١] ولكنهم حـــذروا أيضاً من إنفاق التظاهر ، فقالوا : « **إلّي بيعمـــل بطون الناس كوايره بتخرب دوايره** » . [٢] وحذروا من الضمانة ، فقالوا : « **الضمانـة أوّلا شهامة تانيا ندامة آخرتا غرامة** » . [٣] وحذروا من الاقراض والاقتراض ، فقالوا : « **تدّين ودّين بتغرق ما بتبين** » . [٤] ولمحو آثار الغضب على الفعل تركوا وصفة عملية ، فقالوا : « **اذا غضبت عد للعشرة قبلما تحكي بتصفى ، وإذا كان غضبك قوي عد للمية**

---

(١) أنيس فريحه ، المصدر السابق، م ١٤٥٨ .
(٢) المصدر نفسه، م ٤٨٨ .
(٣) ميشال فغـالي ، المصدر السابق ، م ١٥٠٧ .
(٤) أنيس فريحـه ، المصدر السابق ، م ١١٥٩ .

بتروق».[1] وقالوا للتركيز والتثبيت والدعوة إلى الاتزان: «**حجر التقيل ما بينهز من مطرحو**».[2] وكما قال الحكيم العربي: «**أبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**»، قال السلف في أمثالهم: «**اذا بغضت خلي للصلح مطرح**».[3]

ويدعو السلف إلى الحذر من الناس، فيقولون: «**لا تتكلم بأمان، الحيط إله آذان، وان ما كان له آذان خلفه إنسان**».[4] ويقولون أيضاً، وكأنما يعرفون خطورة ما يسمى في أساليب الحرب بالطابور الخامس، وهم أولئك الذين يقيمون في دولة ويخونونها ويخربونها، ويفشون أسرارها الهامة للدولة المعادية التي تحاربها: «**ألف عدو برا الدار ولا عدو جوا الدار**».[5] وقد سبق أن ذكرنا نصيحتهم الحكيمة: «**لا تدخل بيت الظنان، ولا تاكل خبز المنان**».[6] وقالوا أيضاً: «**لا تقول فول حتى تحط بالمكيول**».[7]

وحذر السلف البخيل، فقالوا: «**حب مالك محب مالك**،

---

(١) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ٥٠٧.

(٢) المصدر نفسه، م ٤٩١.

(٣) المصدر نفسه، م ١٤٥٤.

(٤) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٣٠٨٩.

(٥) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ١٤٥٦.

(٦) انظر ما قبل، ص ٢٧.

(٧) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٣١٢٧.

ابغض مالك مبغض مالك ». [1] وزادوا عـــلى ذلك قولهم : « بشر مال البخيل يما بحادث يما بوارث ». [2] وأخيراً انذروه قائلين : « البخيل بيموت عليل ». [3] ونصحوا بعدم الجشع ، فقالوا : « هلي بيكبر لقمتو بيغص ». [4] وقالوا أيضاً : « ألّـي ما بتقدر تشتريه ، ليش ت تشتهيه ». [5]

وينصح السلف الخلف بأن يعتمدوا على أنفسهم ويتولوا أمورهم بأنفسهم ، فيقولون : « إلّـي بيتكل على الناس ت تتاجرله خوازيق بتنجر له » ، [6] و « إلّـي بيحضر على عنزته (بقرته) بتجيب توم » ، [7] و « إلّـي ما بيشرب من كفه ما بيرتوي ». [8] ويحذرون من المشاركة فيما تصعب المشاركة فيه فيقولون : « حمار ملك ولا كحيلة شرك ». [9]

ويوصي السلف بالجار على أساس أنه مطلع على الأسرار وأنه

---

(١) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٤٢٥ .
(٢) أنيس فريحـه ، المصدر السابق ، م ٨٨٩ .
(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٤١٨ .
(٤) المصدر نفسه ، م ٢٣١ .
(٥) أنيس فريحـه ، المصدر السابق ، م ٥٣٣ .
(٦) المصدر نفسه ، م ٤٥٥ .
(٧) المصدر نفسه ، م ٤٦١ .
(٨) المصدر نفسه ، م ٥٦٦ .
(٩) المصدر نفسه ، م ١٤٧٤ .

لجاره وإن جار ، فيقولون : « **الجار بعوز الجار ولو ببصة نار** » .[١] ويقولون أيضاً قولاً دقيق المعنى واضح الدلالة : « **جارك متل أخاك ، إن ما شاف وجك بشوف قفاك** » .[٢] ومع ذلك لم يفتهم ملاحظة ظاهرة خفية وشديدة الحساسية ، فقالوا : « **المحسدة بين الجيران والبغض بين القرايب** » .[٣] وهناك مثل لهم حوى معانٍ عجيبة لخبرات لا بد أنها كانت غاية في المرارة والإيلام ، وإن تكن شاذة قليلة الحدوث . فقد قالوا : « **الأب رب ، الولد كمد ، الأخ فخ ، الخال وبال ، العم غم ، القرايب عقارب ، والانسان ما لو غير صديقو وجارو** » .[٤]

وعلى الرغم من أن السلف قد تركوا وراءهم للخلف ذلك المثل ذا المعاني القاسية ، فانهم أكدوا أهمية أهل الانسان لحمايته ورعايته والوقوف إلى جانبه في الأزمات والمحن . فقد قالوا لتخفيف حدة المرارة في المثل السالف : « **أهلك ولو علكوك ما بيبلعوك** » ،[٥] وقالوا أيضاً : « **إلّي فيه نقطة من دمك ما بيخلى من همك** » .[٦]

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٢٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، م ١٢٢٩ .

(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٩٧٣ .

(٤) المصدر نفسه ، م ٩٥٩ .

(٥) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٧٣١ .

(٦) المصدر نفسه ، م ٥٢١ .

أما عن الأخ فقد عادوا فأكدوا أهميته ونفعه لأخيه ، وقالوا : **« الأخ جناح »** .[١]

وهناك وصايا كثيرة بخصوص أمور شتى تركها السلف للخلف ، ورأينا أن نختار منها ما يوفي بغرضنا ويكمل دليل العمل ، الذي نقوم بوضعه من أمثالهم وأقوالهم المأثورة . فقد نصحوا الخلف قائلين : **« شي ما بيصلح تركه أصلح »** ،[٢] و **« كلمه إلّي بتستحي فيا أو ّلما تحكيا »** ،[٣] و **« جواب بمحله بيسوى بستان ومغله »** .[٤] وقالوا أيضاً : **« خفة الراس بتتعب السيقان »** ،[٥] و **« الخلاف بورت التلاف »** .[٦] وقالوا كذلك : **« حكم التراضي خير من حكم القاضي »** ،[٧] لأن الذي يلجأ إلى المحاكم لا بد له من أسلحة ثلاثة : مال قارون وصبر أيوب وعناد إبليس .

ومن هذه الوصايا أيضاً ما يتعلق بالآداب فيما يتعلق بالزيارة ، إذ قالوا : **« كترة الزيارة بتقطع شروش (شلوش) المحبة »** .[٨]

---

(١) المصدر نفسه ، م ١١١ .
(٢) المصدر نفسه ، م ٢٠٩٤ .
(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ١٣١ .
(٤) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ١٢٩٢ .
(٥) المصدر نفسه ، م ١٥٤٥ .
(٦) المصدر نفسه ، م ١٥٥٠ .
(٧) المصدر نفسه ، م ١٤٤٢ .
(٨) المصدر نفسه . م ٢٨٤٤ .

وقديماً قال الشاعر العربي ابن الوردي :

«غب وزر غبا تزد حبا فمن أكثر الترداد أضناه الملل»[1]

وفيما يتعلق بعودة الانسان من السفر إلى أهله ، قالوا : **« إذا رجعت من سفر قـدم لأهلك ولو حجر »**.[2] وحضوا على استقرار الانسان في بيته ، إذ البعـد عن الناس خير وأبقى ، وقالوا قولاً جميلاً : **« بيتي يا بويتاتي يا مستر عيباتي »**.[3] وهكذا ذكروا الانسان بعيوبه حتى يبحث عنها ويفكر فيها فيصلحها ، ولا يتقصى عيوب الناس ، كما يقول المثل : **« عيوبي مـا براها وعيوب الناس بركد وراها »**.[4] وقد حذروا من يفعل ذلك بقولهم : **« إلّي بغربل الناس ، الناس بينخلوه »**.[5]

١٢ - صحة البشر :

اعتلال الصحة أمر شائع منذ القدم . ومحاولة المحافظة على سلامة الصحة بالوصفات الوقائية ظاهرة قديمة كذلك . ولقد اهتم السلف بهذا الأمر أشد الاهتمام ، وتركوا للخلف وصفات حكيمة ، هي خلاصة تجاربهم ومنتهى خبراتهم . فقـد قالوا كأساسيات

---

(١) المصدر نفسه ، م ٢٨٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ، م ١٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ، م ١٠٦٧ .
(٤) ميشال فغـالي ، المصدر السابق ، ٢١٥ .
(٥) أنيس فريحـه ، المصدر السابق ، م ٤١٤ .

للمعيشة الصحيحة : « **بيت إلّـي بتفوت له شمس ، ما بيدخل له حكيم** » ،[1] و « **أفضل مأكول ، جوع وكول** » ،[2] و « **نام بكير وقوم بكير وشوف الصحة كيف بتصير** » .[3] ونقول إنها أساسيات، لأنها تتعلق بالمسكن والطعام والنوم ، وهي من ضروريات الحياة .

وليس معنى قولهم بأن الأكل لا يكون إلا عــن جوع ، وقولهم كذلك : « **قلل طعامك تحمد منامك** » ،[4] أن يلجأ الانسان إلى تجويع نفسه ، ف« **رب مخمصة شر من التخم** » . ولقد كانوا غاية في الحكمة ، عندما قالوا : « **لما بتفرغ الخواصر بترتخي المفاصل ، ولما بتنتلي الخواصر بتشتد المفاصل** » .[5] ويذكرنا ذلك بالمثل العربي القائل : « **ببطنه يعدو الذكر** » .[6] ويقال إن « نابليون » ردد هــذا المعنى حينما أراد توجيه اهتمام المسئولين إلى العناية بطعام أفراد القوات المسلحة ، فقال إن الجيش الفرنسي يمشي على بطنه ! ومع ذلك فقد حذر السلف من البطنة ، فقالوا : « **بطن الانسان عدوو بالتمام** » .[7] وقالوا كذلك قولاً ذا معنى عميق : « **الانسان بيحفر قبرو بدراسو** » .[8]

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٠٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، م ٢٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ، م ٣٩٧١ .

(٤) المصدر نفسه ، م ٢٧٧٣ .

(٥) المصدر نفسه ، م ٣١٩٨ .

(٦) الميداني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٧) و (٨) ميشال فغالي ، المصدر السابق، م ٢٢٨١ .

وقد حـــذر السلف من البرد وشددوا على اتقائه ، فقالوا : « **البرد والقلة سبب كل علة** » .[1] وتركوا وصفة طبية لعـلاج نزلات البرد لا تخـلو من الحكمة ، فقالوا : « **أول الرشح نام ، وآخره روح للحمام** » .[2] ونصحوا بأن « **تغيير الهوا أحسن من الدوا** » ،[3] كما أكدوا أن « **ترك الدوا عند أهل المعارف دوا** » .[4] وذلك في حالة المريض بتوهم المرض ، الذي لا يترك طبيباً إلا ذهب لاستشارته ، ولا دواء إلا تعاطاه . وقد خلفوا وراءهم حقيقة خاصة بجسم الانسان ، أصبحت الآن من الحقائق العلمية الهامة ، وهي أن « **ابن آدم لحمة : شدها بتشتد ، رخيها بترتخي** » .[5] فمن داوم على ممارسة أي نوع من الرياضة البدنية ، استطاع أن يحافظ على قوة جسمه ومرونـــة عضلاته واستقامة عوده وتدفق حيويته . ومن ركن إلى الخمول وقلت حركته ، ترهل جسمه وضعفت عضلاته ولم يعتدل قوامه . وعضو الجسم الذي تقل حركته أو تقف لسبب من الأسباب ، يضعف ثم يأخذ في التيبس والضمور مع مرور الأيام .

وهناك عادتان لم يشأ السلف تركهما دون تناول ، لما لهما من

---

(١) أنيس فريحـه ، المصدر السابق ، م ٨٦١ .
(٢) المصدر نفسه ، م ٧٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ، م ١١٨٨ .
(٤) المصدر نفسه ، م ١١٦٣ .
(٥) المصدر نفسه ، م ٣٢ .

شديد الضرر، بل عظيم الخطر على صحة الانسان. أما العادة الأولى فهي عادة تعاطي الحشيش، التي قالوا عن صاحبها: «**أبو حشيشة بحاله غلبان**». [١] وأما العادة الثانية فهي عادة التدخين، التي قالوا عن صاحبها ذلك المثل الدقيق ذا المعنى العميق: «**شريب الدخان لا بينسرق بيتو ولا بيعضو كلب**»، [٢] أي أنه سيقضي ليله في السعال الذي يطيل من فترات يقظته، التي تخيف السارق الذي يبغي السطو على داره، وأنه سرعان ما يصبح ضعيف الصحة خائر القوة، فيحتاج إلى عصاة يتوكأ عليها، فلا يقربه كلب خوفاً من عصاه. وخير ما يقال بخصوص هاتين العادتين، ذلك المثل الذي يؤكد أن: «**شي ما بيصلح تركه أصلح**». [٣]

هذا ولا بد من الاشارة إلى المثل الذي يقول: «**لا تنام بين القبور ولا تشوف منامات وحشة**»، [٤] ليس فقط لما يحتوي عليه من وصفة لسلامة الصحة النفسية، بل لأنه يدل دلالة أكيدة على ما بلغه السلف من نفاذ بصيرة في أمور النفس، التي تعد الآن من الحقائق العلمية، التي استطاعت البحوث النفسية إماطة اللثام عنها. فقد أصبح من الثابت أن الأحلام ترتبط

---

(١) المصدر نفسه، م ٥٦.
(٢) ميشال فغالي، المصدر السابق، م ٥٤٦.
(٣) أنيس فريحه، المصدر السابق، م ٢٠٩٤.
(٤) المصدر نفسه، م ٣١٣٨.

بحياة الفرد اليومية ، بحيث أن ما يفعله وينفعل له وبه ، ينعكس في عقله الباطن ويثير عمليات عقلية تظهر في أحلامه عند النوم . ففعل الأفعال المكروهة أو الشائنة أو المحرمة أو المجرّمة ، من شأنه أن يولد في نفس الفاعل خوفاً وقلقاً يزعجانه في يقظته بضروب من التوترات والوساوس ، وفي نومه بألوان من الأحلام المخيفة .

وليس بمستغرب على السلف أن يصلوا في سبر غور النفس البشرية إلى هذه الدرجة . فقد تركوا للخلف أمثالاً كثيرة ، تكشف عن حذق في معرفة النفس أو بمعنى أدق فهمهم للانسان . فقد قالوا في عزوفه عن العزلة المطلقة : « **جنة بلا ناس ما بتنداس** » .[1] وسجلوا ملاحظة اجتماعية صائبة ، فقالوا : « **كل جيل مع جيلو يلعب** » .[2] وقالوا عن تجربة : « **رضى المتخلق صعب** » .[3] وكذلك قرروا عن خبرة ، أن العصاب يصيب الزوجين أو الشريكين نتيجة التأزم المادي ، فقالوا : « **القلة بتورث النقار** » .[4] وتوصلوا إلى حقيقة نفسية دقيقة ، ضمنوها المثل القائل : « **البتقصر حجتو بيطول لسانو** » .[5]

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٣٨٤ .
(٢) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ١١٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ، د ٤٩٥ .
(٤) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ٢٧٧٠ .
(٥) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ٢٥٧ .

١٣ – سياسة البشر :

لما كانت أخلاق البشر على النحو الذي سبق لنا بيانه ، فقد أصبحت سياستهم واجبة ، وصار لا بد لهم من نظام عام يضبط سلوكهم ، وقانون شامل يمنع عدوان بعضهم على بعض . ومن الطبيعي أن تكون سياسة البشر مسئولية جد خطيرة وعملية شاقة وعسيرة . وتلك حقيقة أكدها السلف في مثلهم الذي يقول : « **رعاية البقر ولا رعاية البشر** » . (١) والاشتغال بالسياسة مهنة غير مشكورة ، لأن إرضاء الناس غاية لا تدرك . فالحاكم يستطيع إقناع بعض الناس كل الوقت ، وكذلك يمكنه إقناع كل الناس بعض الوقت ، ولكنه لا يقدر على إقناع كل الناس كل الوقت . ولذلك قالوا : « **الداخل بالسياسة متل الداخل بتنكة الكناسة** » . (٢)

وقد فطن السلف إلى ضرر الرئاسة المتعددة واستحالتها ، لأنها منافية لطبيعة البشر ، فقالوا : « **إذا كان بدك تخرب بلاد إدعي عليا بكتر الروسا** » . (٣) أما ما نسمع عنه من تعدد الرؤساء في دولة من الدول ، فهو نوع من تقسيم العمل حتى يتسنى التوفر عليه ، إذ أنه من انقطع لشيء أجاده . ومن يدقق النظر في نظام تعدد الرؤساء هذا ، يجده في حقيقة أمره متمركزاً في رئاسة واحدة قوية مسيطرة على الرئاسات الأخرى التي تعاونها .

---

(١) المصدر نفسه ، م ١٧٢٥ .
(٢) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ١٥٩١ .
(٣) ميشال فغالي ، المصدر السابق ، م ١٧٠٣ .

ومما لا شك فيه أن حكم الناس يتطلب الكثير من الحكمة والمرونة والحزم ، بل الشدة في بعض الأحيان . ولئن كان السلف قد قالوا : « **كشر عا نيابك كل الناس بتهابك** » ،[1] فانهم قالوا كذلك : « **حمّل النفس شي ما تطيق ، بيظهر منها شي ما يليق** » .[2] وقالوا أيضاً : « **إن كنت سِيد لا تزيد** » .[3] ولم يقف السلف عند حد توجيه الحاكم وتحذيره ، بل إنهم قد نصحوا الرعية بدورها برقابته ، حتى لا يطغى ويصبح حاكماً مطلقاً فيفسد على الاطلاق ، ويقيم حكمه على الظلم والاستبداد . وفي ذلك أطلقوا مثلهم الممعن في عروبته : « **قالوا لعنتر : مين عنترك ؟ قال : ما شفت حدا ردني** » .[4] ولا مراء في أن رقابة المحكومين للحاكمين وتتبع أعمالهم واستجوابهم ، إذا تطلب الأمر ذلك ، هو الأساس السليم للديمقراطية .

---

(١) المصدر نفسه ، م ٤٧٧ .

(٢) أنيس فريحه ، المصدر السابق ، م ١٤٨٠ .

(٣) المصدر نفسه ، م ٦٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ، م ٢٧١١ .

خامساً

خاتمة

ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن جمع الأمثال وتنسيقها أمر لا بد منه ، إذا أريد المحافظة على جزء هام من التراث الاجتماعي الذي خلفه السلف . ولقد تبين من التحليل الاجتماعي للأمثال ، التي اخترناها في إطار خطة محددة المعالم ، أنه أمكن تحقيق هدفين رئيسيين : أحدهما توضيح أفكار السلف وفلسفتهم في الحياة ، والثاني إفادة الخلف من تجارب السلف وخبراتهم ، عن طريق وضع دليل عمل موجز ومبسط ، تسهل قراءته واستيعاب أفكاره ، في ضوء الفكر المعاصر الذي يعد العلم أبرز مظهر من مظاهره .

وقد ثبت في بحثنا هذا أن السلف قد تناولوا بالأمثال كل مظهر من مظاهر الحياة . ومما يسر ظهور ذلك بوضوح ، تحليلنا الاجتماعي الذي سرنا فيه وفق دورة حياة الانسان منذ الميلاد ، وشمل أهم المعالم الرئيسية في طريق مسيرته . ولعل ذلك يشهد على قيمة استخدام التحليل الاجتماعي للظواهر . وهو تحليل شامل لكل ما يحتوي عليه مفهوم الاجتماعية من أبعاد ، تنحصر في النظم الاجتماعية التي تحدد النظام العام للمجتمع . وليس بخاف أن التحليل الاجتماعي الذي قمنا به ، يتضمن في ثناياه عملية من أهم عمليات البحث العلمي . تلك هي عملية تفسير الحقائق . وذلك

لما تحتاجه من ملاحظة دقيقة ومستوعبة للارتباطات ، التي يمكن الكشف عنها بين هذه الحقائق ، والتي يمكن أن تؤدي بدورها إلى الوصول إلى ما يمكن تسميته بالأحكام أو النظريات العامة عن الحياة البشرية .

وهناك ظاهرة لافتة تتعلق بواقع الأمثال في الحياة اليومية . وهي أن الذين يحفظون الكثير من الأمثال ويستخدمونها في شتى المناسبات ، هم أولئك الذين تخطوا مرحلة الشباب ، وأنه كلما صغرت سن الفرد قلت حصيلته منها . ولكن ينبغي أن نقرر أيضاً أن الناس لا يحفظون الأمثال من بطون مجموعاتها المنشورة ، وإنما يكون حفظهم إياها عن طريق السماع . وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأن القدر الذي يحفظه كل فرد من الأمثال يتوقف على سنه من جهة ، كما يتوقف من جهة أخرى على من يتعامل معه من الأفراد الآخرين الكبار في السن ، وبخاصة والديه ، ومدى ترديدهم الأمثال على مسمع منه .

وما دام الأمر كذلك ، وما دامت هناك أمثال جد مفيدة في الحياة اليومية ، كما سبق أن أوضحنا ، فاننا نقترح تعميم الفائدة منها بين الأطفال والشباب ، وذلك بتناولها بطريقة ملائمة لكل سن ، وبالأساليب التي تناسب روح العصر الذي نعيش فيه . فهناك إلى جانب الأسلوب الاجتماعي العلمي الذي اتبعناه ، أساليب أخرى يمكن اتباعها لنشر الأمثال ذات الفائدة المحققة في الحياة اليومية وتعميق المفهومات المتضمنة فيها . فهناك الأسلوب الأدبي

الذي يعتمد على القصة أو التمثيلية القصيرة ، التي يمكن نسج موضوعها حول مَثَل معين. وهناك الأسلوب الفني الذي يستخدم الوسائل التشكيلية أو التعبير الموسيقي ليصور المعنى أو المعاني التي يحتوي عليها المثل ، الذي تتوافر فيه شروط خاصة لتحقيق هذا الهدف . وبذلك لا نكون قد حافظنا على التراث فحسب ، بل نكون قد أفدنا الأجيال الجديدة منه ، وأسهمنا في محاولة تحقيق السعادة لهم . وهذا في رأينا ، هو الهدف الحقيقي لكل علم وكل فن .
